

2 me Année,No . 31

Lundi-5-2-1934

بدل الاشتراك عن سنة

قرش	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الاقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٩٩٢ ، ٤٠٥٣٠

العدد الحادى والثلاثون . القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ شوال سنة ١٣٥٢ — ٥ فبراير سنة ١٩٣٤ السنة الثانية

فهرس العــــدد

فى الأقصــــر . . .

— ٢ —

وقف القطار ضحى على محطة الأقصر . وأخذ الحجيج المدنى يخطو على افريزها ذابل الأجفان ، خاثر الأبدان ، من تكسير السهاد أو تفتير الوسن . وكان قوم يستقبلون زوار الآثار ، وقوم يستقبلون أطباء المؤتمر ، فتدفق الركب المتجمع لدى الباب فى وجهتين مختلفتين ، وذهب بنا أولياء القطار الى موائد الافطار ، فأصاب منها من أراد على قدر شهوته ، ثم قسمونا الى قسمين : قسم يزور (طيبة الأحياء) فى الشرق ، وقسم يزور (طيبة الأموات) فى الغرب . وهل بقى لعمرى فى طيبة اليوم أحياء أو أموات ؟ ! لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها الى القبر ، وذهبت الحياة منذ قريب بأمواتها الى المتحف ! فلم يبق منها على عدوتى الوادى غير أنقاض طفت على وجه القرون ، وأبعاض بينها وبين الفناء صراع لا يفتر !

الأقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على أطلال طيبة كما تقوم أعشاش الطيور على شمّ الصخور ! تسير فى شوارعها القروية ، وبين منازلها المتنافرة ، فلا يستبى طرفك منظر فاتن ، ولا يزدهى لبك مظهر غريب ، فاذا استثنيت (ونتربالاس) وما تألق من الفن فى فنائه وأبهائه . ومرفأ النهر وما

يرفرق من الحسن فى ظله ومائه . وشارع السلطان حسين وما تنسّق على حفافيه من نخله وكهربائه ، والجو الفاتر وما شاع من القوة فى شمسه والحياة فى هوائه ، وجدتَ بلداً كأحقر بلاد الناس يعيش حاضره على ماضيه . وتذهب عينه على آثاره ! ولكن ولّ ظهرك حضارة الاحداث ، وتعال نسِر وراء العم (ضاوى) فى طريق الكرنك . وبين الأقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال ويسبح فى أعماقه الخاطر . ومن الذى يستطيع أن يجول فى مسارح الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذى افتتح به الأزل رواية العالم ؟

فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت فى ظلال هذه الجبال إنسانية باكرة ترسل النظر الثقيل البطىء فى هدوء واستقامة وبعد . ويصور لها عقلها الطفل ألوان التعاجيب والتهاويل من قوى الطبيعة الخفية ، فتنحت الجبال قبورا ، وتبتنى الصخور قصورا ، وتقيم لآلهتها الغلاظ من صم الجلاميد تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث :

وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الانسانى يقطع مرحلته الأولى بينما كان الرقاد الأزلى يغشّى سائر الأرض ، ويطير متثاقلا عن جفون يونان وأشور .

وهنا سجّل الزمن الواعى على مُلْسِ الغرانيت أولى صحائف الفكر ، فألهمت اليهود والاغريق فى الدين والفن والجمال فى شتى ضروبه وصوره ، وهنا كانت لبنى الانسان بداية حسنة ، لولا أن طغيان الفرد المتحكم ، وسلطان الدين المتعسف ، قد جعلا لهذه البداية نهاية من الجور والارهاق محزنة ! فها نحن أولاء بين صفين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد أمون . ومعبد أمون يتلو عليك وحده ان شئت نبأ القوم ! فهو أكداس هائلة من ضخام الصخر تنافس فى نقلها وركمها الجبابرة فى خمسة عشر قرنا منذسنيّ الأول! منها أبواب وحُجَر ، ومنها محاريب وتماثيل ، ومنها مسلات وعَمَد ؛ ومن ذلك كله ما هو قائم يتحدى بطوله السماء ، وما هو نائم يفدح بثقله الأرض !

أنظر إلى هذه الغابة الكثيفة المخيفة من الأعمدة أتظن الشمس منذ أوقدها الله أشرقت على مثلها فى الضخامة والبساطة ؟ ألا يذكرك هذا العمود الذى تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة وعشرين متراً بصرح (تيتان) الخرافى واخوته (١) ؟

من الذى قطع هذه الأطواد ، ووضع هذه الأوتاد ، وشاد هذه الأروقة ، ونحت من الصوان هذه الآلهة البُكم ، وخلد الملوك على هذه الحجارة الصُّم ؟ ؟ هو شعب النيل الذليل البائس ! بناها وبنى سواها على قَفار الخبز وألهوب السوط ونزع الروح ، ولا تستطيع أن تصدق وأنت ترى هذه المعجزات أن مصر كانت فى مدى ثلاثين قرناً تعمل غير ذلك

استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا فى سبيلها جسوم الشعب ، وملكهم حب الآخرة فسخروا له حب الدنيا ، وفتنهم متاع السماء فرصدوا له متاع الأرض ، وأغرقوا فى إعزاز النفس وإيثار الحياة وتقديس العظمة . فأنكروا حرمة العامة ، وجحدوا قدرة الموت ، وجهلوا معنى الضعة ، وخلفوا لأجيال الأبد من يطمح كالملوك ، ويطمع كالكهنة ، ويخضع كالسوقة !

لقد كنا نتجمع حول دليلنا الهاذى فى أروقة هذا المعبد المحطم ،نطن فى أجوافه طنين البعوض باللحون المختلفة : نذكر أوائلنا الذين ارتجلوا للناس لفظ المجد ، واقتحموا على الدهر باب الخلد فنَزْهَى ونصلَف ؛ ونذكر أسلافنا الذين قامت على اشلائهم هيا كل أمون ، وفاضت بدمائهم بحيرة أوزيريس (٢) فنأسى ونأسف ، ونذكر أمام ذلك الماضى الخالد حاجز الكرنيش وحائط الحكمة المختلطة فنمضى ونضحك !!

احمد حسن الزيات

---

(١) تزعم الاساطير ان تيتان واخوته نسلوا من أبويهما السماء والارض ، وانهم تمردوا على الالهة فجعلوا الجبال طبقات بعضها فوق بعض ليعرجوا عليها الى السماء فصعقهم زحل

(٢) هذه البحيرة لا تزال فى المعبد تزورة العين الى اليوم

النفس والرقص

للكاتب الشاعر الفرنسي بول فاليري

ترجمة الدكتور طه حسين

– ٤ –

فيـــدر – لنستمتع لحظة أخرى فى سذاجة بهذه الاعمال الحسان ! . . . كأنما تقدم(١) الهدايا عن يمين ، عن شمال ، الى الأمام ، الى وراء ، الى فوق والى تحت ، من الطيب ومن البخور ومن القبل ، وحياتها نفسها تهديها الى كل مكان فى الكرة والى قطبي الكون .

إنها ترسم ورداً وشباكا ، ونجوما من الحركات ، وأسواراً سحرية . . . . انها تثب فتجاوز الدائرة التى لا تكاد تغلق . . . انها تثب وتجرى فى أثر الاشباح . . انها تجنى زهرة لا تلبث أن تستحيل الى ابتسامة . . . ما أعجب ما تنكر وجودها فى خفة لا تنقضى (٢) ! . . . انها لتضل بين الاصوات ثم يردها الى الهدى خيط ضئيل (٣) . . . هو المزمار المعين الذى أنجاها ! يالعذوبة اللحن ! . . .

سقراط – كأن ما حولها ليس الا أشباحا . . . . انها تلد هذه الاشباح وهى تهرب منها ، ولكنها اذا التفتت فجأة تخيل الينا انها تتراءى للآلهة الخالدين ! . . .

فيدر – أليست هى روح الأساطير ، وماينفذ من جميع أبواب الحياة !

أركسيماك – أظن أنها تعلم من هذا شيئا ؟ أو انها تفاخر بانها تنتج شيئا الا هذه الحركات التى تأتيها حين تغلو فى رفع قدميها ،

(١) هى الراقصة يشير الى ما تثيره حركاتها الكثيرة الخفيفة المتصلة فى نفسه من الصور والخيالات .

(٢) يريد أن كثرة الحركات وخفتها واتصالها تكاد تمحو شخصها وتلهى الناظرين عنه .

(٣) يريد أن انغام الموسيقى وأصواتها كثيرة مختلفة وان الراقصة تجاريها كلها فتكاد أن تضل بينها لولا أن صوت المزمار يظهر متشابها من حين الى حين فيحقق الوحدة فى الموسيقى والرقص معا .

وهذا التوقيع وهذه الالتواءات التى أتقنتها فى مشقة حين كانت تتعلم الرقص (١)

سقراط – من الحق اننا نستطيع ان نلاحظ الامر تحت هذا الضوء الذى لاسبيل الى انكاره . . . . فالعين الهادئة تنظر اليها فى يسر كما تنظر الى مجنونة . هذه المرأة التى اجتثت من اصلها اجتثاثا غريبا ، والتى لاتنفك تنزع نفسها من صورتها (٢) على حين قد جنت اعضاؤها فهى تتنازع الارض والهواء ، وعلى حين يستلقى رأسها فيجر على الارض شعرا مفرقا ، وعلى حين تظهر احدى ساقيها كانها اخذت مكان الرأس ، وعلى حين تخط اصبعها فى التراب علامات لأدرى ما هى ! . . . وبعد ، فلم هذا كله ؟ — يكفى ان تثبت النفس وان تمتنع فاذا هى لاتلاحظ الا ما فى هذا الاضطراب من غرابة تدعو الى الاشمئزاز . . . فلو اردت يانفس لكان كل هذا سخيفا (٣)

اركسيماك – واذن فانت تستطيع حسب استعدادك ان تفهم والا تفهم ، وان ترى الشيء جميلا او تراه سخيفا كما تحب وتهوى ؟

سقراط – يجب ان يكون ذلك كذلك . . . .

فيدر – اتريد ان تقول ايها العزيز سقراط ان عقلك ينظر الى الرقص كانه شخص غريب يحتقر لغته ويرى اخلاقه شاذة بل مؤذية بل فاحشة كل الفحش .

اركسيماك – يخيل الى احيانا ان العقل هو الملكة التى تمتاز بها نفسنا والتى تمنعها من ان تفهم جسمنا باى حال من الاحوال (٤) !

فيدر – أما انا ياسقراط ، فان ملاحظة الرقص تمكننى من ان أتصور اشياء كثيرة ، وأتصور الصلات بين أشياء كثيرة . وهذه الاشياء تصبح فورا فكرتى الخاصة وتكاد تفكر مكان فيدر . واجدضوءا ما كنت قط لاجده فى الخلوة الى نفسى وحدها . ولقد كانت اتكتيه

(١) يريد بهذه الجملة أن يرد الرقص وما يشبهه من أعمال الفن الى أصله الساذج اليسير المادي ليشير الى أن ما يثيره من الصور والخيال والعواطف انما هو فى انفسنا نحن لا فى الفن نفسه . وهذه الفكرة هى التي سيدور حولها الحوار منذ الآن .

(٢) يريد أن حركات الرقص تخرجها عن طورها فكأنها قد نزعت من نفسها نزعا .

(٣) يريد أن النفس تستطيع أن تشهد الرقص وغيره من مظاهر الفن وان تغلق أبوابها من دونه . فاذا هى لا ترى فيه إلا حركات مادية وآلية لا جمال فيها ولا سحر ولا غناء ، واذن فالنفس هى التي تمنح الفن قيمته .

(٤) يريد الصديقان أن ينكرا على سقراط رأيه هذا ، وأن يرفضا تحكم العقل وحده فى الفن ، لأن العقل ليس كل شيء .

منذ حين تخيل الى أنها تصور لى الحب . — اى حب ؟ — لاهذا ولا ذاك ، ولا أى مغامرة سخيفة ! — لم تكن تصور شخص الحبيبة من غير شك ... لم تكن تخيل ، لم تكن تمثل ! كلا . كلا . لم تكن تخترع الخيال ... ولم تتكلف ايها الصديقان حين نستطيع ان نتصرف فى الحركة وفى المقدار وهما خير مافى الحقيقة من الحق ؟ .. كانت اذن حقيقة الحب ولكن ماهـذه الحقيقة ؟ وممَ هى ؟ وكيف تحديدها او تصورها — ونحن نعلم ان روح الحب إنما هى الفرق الذى لا يقهر بين العاشقين ، على حين ان مادة الحب الرقيقة أنما هى اتحاد رغبتهما (١) فيجب اذن ان يلد الرقص بدقة معالمه ، وبجمال وثباته ، وبرقة وقفاته ، هذا الكائن الكلى الذى ليس له جسم ولا وجه ، ولكن له منحا واياما ومصائر ، ولكن له حياة وموتا بل ليس هو الا حياة والا موتا ، فان الرغبة اذا نشأت لم تعرف نوما ولاهدنة .

وهذا تستطيع الراقصة وحدها ان تظهره للعيان بأعمالها الحسان. كلها ياسقراط ، كان الحب ! ... كانت لعبا وبكاء وتكلفا لاغناء فيه ، سحر ، سقوط ، منح والمفاجآت ، ونعم ولا ، وكل هذه الخطى الضائعة فى حزن .. كانت تحتفل بكل اسرار المحضر والمغيب ، وكأنما كانت احيانا تمس الكارثة التى لا تمحى (٢) ... ولكن الآن انظر اليها تقربا الى افروديت (٣) . أليست تظهر فجأة كأنها موجة من موج البحر ؟ طورا أثقل : وطورا أخف من جسمها ، تثب كأنما تنفصل عن صخرة ، ثم تسقط فى هدوء . . . هى الموج

اركسماك — مهما يكن من شىء فان فيدر يزعم أنها تصور شيئا .

فيدر — ماذا ترى ياسقراط ؟

سقراط — فى أنها تصور شيئا ؟

فيدر — نعم . اترى أنها تصور شيئا ؟

سقراط — لاشىء اى فيدر العزيز . ولكن كل شىء أى اركسماك — تصور الحب كما تصور الحياة نفسها وكما تصور الخواطر

(١) يريد أن يجعل للحب روحا ومادة فاما روحه فهى هذه الفروق التى تميز بين العاشقين ، والتى تدفع أحدهما الى حب صاحبه ليكمل به نفسه . وأما مادة الحب فهى هذه الرغبة المشتركة بين الحبيبين فى أن يأتلفا

(٢) كل هذا تصوير لما تشتمل عليه حركات الرقص من رمز للحب وأطواره المختلفة فى أوقات الرجاء واليأس

(٣) تقول الاساطير ان افروديت الاهة الحب قد نشأت من زبد البحر

والآراء ... الا تشعران بانها خلاصة التحول (١) ؟

فيدر — أى سقراط الملهم انك لتعلم أى ثقة ساذجة نادرة قد وثقت بنورك الذى لانظير له منذ عرفتك . لا أسمعك الا صدقتك ، ولا أصدقك الا استمتعت بنفسى التى تصدقك . ولكن القول بان رقص اتكتيه لا يصور شيئا ولا يكون فوق كل شىء صورة لقوة الحب وظرفه قول لا أكاد أطيق الاستماع له .

سقراط — لم أقل — الى الآن شيئا يبلغ هذه القسوة ! — أيها الصديقان . انى لا أزيد على ان اسألكما ما الرقص ، وكلاكما يظهر علما بالجواب ، ولكنكما تعلمانه على اختلاف بينكما ! أحدكما يقول ان الرقص هو ماهو ، وأنه ينحل الى ماترى أعيننا هنا . والآخر يؤكد أنه يصور شيئا ، واذا فليس هو كله فى نفسه وانما هو فى انفسنا قبل كل شىء . اما أنا ايها الصديقان ، فما زلت أحتفظ بشكى كاملا ! .. خواطرى كثيرة ، وليس هذا علامة خير ! . . . كثيرة مختلطة ومزدحمة حولى على السواء . . .

اركسماك — أتشكو من الثروة !

سقراط — ان الثروة تضطر الى السكون . ولكن رغبتى حركة يا اركسماك . . . انا محتاج الآن الى هذه القوة الخفيفة التى تمتاز بها النحلة ، كما تمتاز بها الراقصة ... يحتاج عقلى الى هذه القوة ، وهذه الحركة المركزة اللتين تعلقان الحشرة فوق جماعة الزهر وتجعلانها حكما ناطقا فيما بين رحيقها من اختلاف . وتقدمانها كما تحب الى هذه أو الى تلك ، الى هذه الوردة البعيدة بعض الشىء . وتسمحان لها بأن تمسها أو تتركها أو تمعن فيها . . . هى تنأى فجأة عن الزهرة التى فرغت من حبها . ثم تعود اليها اذا أحست الندم لأنها تركت فيها بعض الرحيق الذى ماتزال ذكراه تتبعها ، وماتزال لذته الماضية تنغص عليها طيرانها . أو يحتاج عقلى يافيدر الى هذا التنقل الدقيق الذى يتاح للراقصة ، والذى اذا انسل بين خواطرى ايقظها فى رفق واحدا اثر واحد ، وأخرجها من ظلمة نفسى وأظهرها لضوء عقليكما ، فى خير نظام بين النظم الممكنة ! (٢)

فيدر — تكلم ، تكلم . . انى لأرى النحلة على فمك والراقصة فى نظرتك (٣)

طه حسين

(١) يريد سقراط أن يعبث بصاحبيه لان أحدهما يراها تصور أشياء كثيرة والآخر يراها لا تصور شيئا ويريد سقراط أن يردهما جميعاً الى القصد

(٢) كل هذا تصوير لاشراف العقل على الاشياء المختلفة يلتمس فيها الحق ويستخرجه منها كما تشرف النحلة على جماعة الزهر تلتمس فيها الرحيق

(٣) يريد أن سقراط قد استعد لاستخراج الحق واستكمل ادوات البحث

صفحة سـوداء

بقلم الأستاذ احمد أمين

رووا أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب فى وصف مصر أن : « نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وهى لمن غلب » .

ورووا أن عتبة بن أبى سفيان كان عاملا لأخيه معاوية على مصر ، فبلغه أمور عن أهلها ، فصعد عتبة المنبر مُغْضَبا وقال : « أيا حاملين ألأم أنوف ركبت بين أعين ، إنما قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً اليكم ، فأما اذ أبيتم إلا الطعن فى الولاة والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط ، فان حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم » .

وقبل هذا وذاك ، جاء فرعون « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى »

وجاء أبو نواس مصر بعد ذلك فقال :

محضتكمُ يا أهل مصرَ نصيحتي ... ألا فخذوا من ناصح بنصيبِ

رماكم أميرُ المؤمنين بحيّة ... أكولٍ لحيّات البلادِ شروبِ

فان يك باقٍ إفك فرعونَ فيكمو ... فانَّ عصا موسى بكفِّ خصيبِ

واشتهر المصريون عند المؤرخين بالانهماك فى الشهوات وعدم النظر فى العواقب ، ولما رآهم ابن خلدون على هذه الحال قال فيهم : « كأنما فرغوا من الحساب » يريد أنهم لا يحاسبون أنفسهم على ما يصدر منهم ، ولا يخافون من عاقبة أعمالهم ، كأنما فرغوا من الحساب .

وظل مؤرخو العرب يرمون المصريين بالذل ، وقبول الضيم فى كل ما كتبوا — وكان من أشدهم المقريزى فى أول خططه ، فقد عقد فصلا فى أخلاق المصريين قال فيه : « وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالتُّرهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطف فيه ، وهداية اليه » . ثم رماهم بالذل ، وأخذ يحصى الاقوال فى ذلك : فروى عن كعب الأحبار أن « الخِصب قال : أنا لاحق بمصر ؛ قال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية . فقالت الصحة وأنا معك » . وروى أن ابن القرية وصف أهل مصر فقال : « عبيد لمن غلب ، أكيس الناس صغارا ، وأجهلهم كبارا » .

وجاء بعده السيوطى فلم يخجل من أن يضع فى كتابه « حسن المحاضرة » فصلا عنوانه « السبب فى كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم » وقد جاء فيه « أن الشيخ تاج الدين كان يقول : إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد فى علمه زيادة ، ومن أقام بالموصل سنة وجد فى عقله زيادة ، ومن أقام بدمشق سنة وجد فى طباعه غلظة ، ومن أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسنا » والرقة والذل قريب بعضهما من بعض . وقال القاضى الفاضل : « أهل مصر على كثرة عددهم ، وما ينسب من وفور المال الى بلدهم ، مساكين يعملون فى البحر ، ومجاهيد يدأبون فى البر »

ويذكرون الذل على أنه حقيقة ثابتة ، ثم يختلفون فى السبب فى ذلك ، فمن قائل ان المصريين غاظوا يوماً سعد بن أبى وقاص ، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل ؛ وسعد عرف باجابة الدعوة .

إن كان ذلك فالخطب هين ، فمن الممكن أن يجتمع صلحاء مصر وورعاؤها فيقرءوا الفواتح والدعوات وما تيسر من القرآن الكريم ، ويهبوها لروح سعد ويطلبوا اليه أن يعدل عن دعوته ، ويطلب الى الله تعالى أن يرميهم بالعزة بعد الذل . وما أظن سعداً يصر على دعوته ، وقد عرف فى حياته بالسماحة والسؤدد .

ومن قائل : إن فرعون لما غرق كان معه أشراف القوم وأعزتهم ، فلما غرق غرقوا معه ، فلم يبق إلا الحثالة ، فأتى من نسلهم الجبناء الأذلاء . وهل ينتج الذليل إلا الذليل ؟ وهذا القول أيضاً سهل رده ، فالمصريون قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة اليونان والرومان ، وسادة العرب وسادة الأتراك ، «ذابوا فى مصر واختلطوا بأهلها ؛ فلِمَ يغلب الذلُّ العزة وعهدنا دائماً غلبة الأعزاء ؟

أخطر الاسباب ما يلمح اليه الماكر « المقريزى » فهو يريد أن يبعث فى النفوس اعتقاداً بأن هذا سبب طبيعى يرجع إلى الاقليم وإلى الجو ، وإلى طبيعة الارض ، هو يريد أن يقول ان ذلك خلقة فيهم ، بل هو فى كل شىء حولهم فيقول « ان هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الادوية ضعفا فى قوتها ، فأعمار الادوية ـ المفردة والمركبة ، المعجون منها وغير المعجون ـ بمصر أقصر منها فى غير مصر » وأشد من ذلك وأصرح قوله « ان قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير ، قليلة الصبر والجَلَد ، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء الى شىء ، والدعة والجبن . . . ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأُسد ، واذا دخلت ذلت ولم تتناسل ، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ، ما خلا ما كان منها فى طبعه ملاءمة لهذه الحال كالحمار والارنب »

قول قاس أيها المؤرخ ! ولو صح ما قلت لكان حكما أبديا صارما ، فان لنا طاقة بتغيير كل شىء الا الجو والاقليم فماذا نصنع فيهما ، لو كان صحيحا قولك لاستوجب اليأس فى الاصلاح ، فما تفلح أمة ضرب عليها الذل والخضوع ، بل لوجب الرحيل من بلد يسمم جوُّها دائما أخلاق أهلها :

وقديما قال الشاعر :

« واذا نزلت بدار ذل فارحل »

أخشى أن تكون متأثراً بآراء شيخك ابن خلدون وقد كان فى طباعه حدة وعنف ، وفى المصريين دعة ، فنظر اليها بطبعه الحاد نظرة فيها افراط وفيها مبالغة ـ لو كانت نظريتك صحيحة لما تعاقبت الذلة والعزة على الامة الواحدة فتعز بعد ذلة ، أو تذل بعد عزة ؛ « الجو واحد والاقليم واحد — وان فى تاريخ مصر نفسها صفحات بيضاء تتجلى فيها العزة بأجلى مظاهرها ، الحق — يا سيدى — أن الاقليم عامل ، ولكن ليس كل عامل ، فاذا كان الجو سما فالتربية والتعليم ترياق ، ألا ترى الى مَثَلك نفسه ، فقد ذكرت أن الادوية والمركبات والمعاجين يسرع اليها الفساد فى مصر لسوء الجو — لو عشت الى عصرنا لعلمت كيف تغلَّب العلم على الاقليم ، وصار من المستطاع فى يسر وسهولة أن يحفظ الدواء — بأبسط المعالجات — فى مصر كما يحفظ فى أوربا وأن التربية كذلك تفعل فى النفس الاعاجيب ، وكل ما نستطيع أن نستفيده منك أنك نبهتنا أنت وأمثالك من المؤرخين على أن فى مصر جبنا وفى مصر ملقا ، الى هنا نقبله منك ولكنا لا نستسلم له ، ولا نقر أنه طبيعى فينا . ولكن لنريك الامثال على خطأ تعليلك ولننبهك على نظرية ثبتت حديثاً وهى : ان الامم المبتدية الساذجة هى أكثر استسلاما للطبيعة وشؤونها ، والأمم المتحضرة تستطيع بعلمها وتربيتها وقوة عقلها أن تسخر الطبيعة لمصلحتها ، لا أن تخضعها الطبيعة لأمرها ، فنحن نستطيع أن نستفيد من وداعة الطبيعة فنكون وديعين الى حد ، فاذا أرادت أن تتجاوزه الى نفاق وملق وجبن قالت التربية « لا » بملء فيها ، وحق للتربية اذا قالت « لا » أن يكون « لا » .

وعبت كلاب المصريين بالضعف ، ويظهر أنك لم تر كلاب « أرمنت » وما هى عليه من بسطة فى القوة والجسم ، ولو قدر عليك أن ينبحك واحد منها ما سلمت بجلدك ، ولغيرت حكمك .

لقد احسستَ بان تعميم نظريتك خطأ بين ، فاستدركت وقلت « ومن المصريين من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور » أليس هذا — يا سيدى — نقضاً لقولك

وتسليما لقولنا ، فأنت تعلم أن « ما بالطبيعة لا يتخلف » ولو كان الذل ينفثه الاقليم وحده، لما رأيت شاذاً من الشواذ، ألا ترى أن فعل الطبيعة فى الادوية ـ يسرع اليها الفساد ـ مطرد، ومطرد دائمـــاً ؛ فاذا اختلف الناس فى الجبن والعزة والملق والصراحة ، فهناك عامل آخر أقوى وهو عامل التربية نستطيع به أن تتغلب حتى على قوانين الطبيعة

أرجو ألا يسمح الجيل الجديد والاجيال القادمة لمؤرخيهم لن يؤرخوهم كما أرخهم المقريزى والسيوطى؟

أحمد أمين

ابو عبد الله
آخر ملوك الاندلس
للاستاذ محمد عبدالله عنان

تبوأ ابو عبد الله عرش غرناطة للمرة الثانية بعد ان قضى فى أسر ملك قشتالة زهاء ثلاثة اعوام . وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها حسيا بينا ، فلم يبق منها بيد الاسلام سوى بضع مدن وقواعد متناثرة مختلفة الرأى والكلمة ينضوى بعضـــها تحت لواء ابى عبد الله والبعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن على (الزغل) . وكان واضحا أن مصير غرناطة يهتز فى يد القدر بعد ان نفذت جيوش النصرانية الى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، ولم يكن الملك الصغير (ابو عبدالله) طبق المعاهدة التى عقدها مع فرديناند سوى تابع لمملكة قشتالة . يدين لها بالخضوع والطاعة ؛ وكان ملك قشتالة يحرص من جهة أخرى على المضى فى تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الاسلام فى الاندلس قبل أن يعود اليها اتحاد الكلمة ، فيبعث اليها روحا جديدا من العزم والمقاومة ، فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل لانه كان فى صلح مع غرناطة يمتد الى عامين ، وقد اراد ان يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، ولأنه أراد اولا أن يعزل غرناطة ، وان يطوقها من كل صوب . وزحف فرديناند بادىء بدء على مالقة أمنع ثغور الاندلس وعقد صلتها بالمغرب ، وطوقها بقوات كثيفة من البر والبحر وسقطت مالقة رغم دفاعها المجيد فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ (اغسطس ١٤٨٧م) . ثم استولى فرديناند على المنكب والمرية (اواخر سنة ٨٩٤ هـ ـ ١٤٨٩ م) ثم على بسطة (المحرم ٨٩٥ هـ ديسمبر ١٤٨٩) ثم قصد الى وادى آش آخر معقل لمولاى الزغل، ورأى الزغل رغم شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل وان جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، فانتهى الى الاذعان والتسليم ، ودخل فرديناند وادى آش فى صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير ١٤٩٠م) واتفق بادىء بدء أن يستمر (الزغل) فى حكم قواعده باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وان يلقب بملك اندرش ، وان يمنح دخلا سنويا كبيرا ، ولكنه لم يلبث ان رأى انه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع الشاذ ، فباع حقوقه لفرديناند مقابل مبلغ كبير ، وجاز البحر الى المغرب واستقر فى تلمسان يقضى بها بقية حياته فى غمر من الحسرات والعدم ؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا ان نهاية الاسلام بالاندلس قد غدت قضاء محتوما

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للاسلام بالاندلس . وكانت جميع قواعد الاندلس الاخرى : مالقة والمرية ووادى آش والحامة وبسطة قد غدت نهائيا من املاك مملكة قشتالة وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن أهلها اوغدوا مدجنين يدينون بطاعة ملك النصارى (١) وذاعت بها الدعوة النصرانية فارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصا على اوطانهم ومصالحهم ، وخشية الريب والمطاردة ؛ وجازت الوف أخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم الى المغرب وتفرقوا فى ثغوره ، وهرعت الوف أخرى الى غرناطة تلوذ بها حتى غدت المدينة تموج بسكانها الجدد . وكان سلطان غرناطة ابو عبدالله يرقب هذه الحوادث جزعا ويشعر انها تسير الى نتيجة محتومة هى سقوط غرناطة فى يد العدو الظافر ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه الزغل من الميدان من منافسه القوى ؛ ولكنه فقد فى

(١) ـ المدجنون او أهل الدجن (الفعل تدجن ومصدره الدجنة) كلمة اطلقت على المسلمين الاندلسيين الذين دخلوا فى طاعة ملك النصارى واعترفوا بها . ومقابلها الاسباني هو كلمة Mudejares وقد شاع استعمالها منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اعني منذ كثر استيلاء النصاري على قواعد الاندلس

نفس الوقت أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ، وسرعان مابدت طوالع الخطر الداهم ، وبعث فرديناند الى ابى عبد الله يطلب اليه تسليم الحمراء (١) والبقاء فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزغل : فثار ابو عبد الله لذلك الغدر ، وأدرك - وربما لاول مرة - فداحة خطأه فى محالفة ذلك الملك الغادر ؛ وجمع الكبراء والقادة ، فاجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم ؛ ودوت غرناطة بصيحة الحرب ؛ وحمل ابو عبد الله بعزم شعبه على القتال والجهاد ، وخرج فى قواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة : وثار اهل البشرات وما حولها على النصارى ؛ ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون ، واستردوا كثيرا من الحصون والقرى فى تلك المنطقة (اواخر سنة ٨٩٥ هـ) ، وعاد ابو عبد الله الى غرناطة ظافرا ، وانتعشت قلوب الغرناطيين توعا بذلك النصر الخلب ، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم . وغضب فرديناند لتلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها واعتزم ان يقوم بضربته الحاسمة فى الحال : فخرج فى ربيع العام التالى (٨٩٦ هـ) فى جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة : وسار توا الى غرناطة ونزل بمرجها الجنوبى ، وأنشأ لجيشه فى تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتافى Santa Fé (شنتفى) او الايمان المقدس رمزا للحرب الدينية : وهى تقوم حتى اليوم . وبدأ حصار غرناطة فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (مارس ١٤٩١ م)

ولسنا نقف طويلا عند حوادث هذا الصراع الأخير بين الاسلام والنصرانية فى الأندلس : فهى تملأ فصولا طويلة مؤثرة فى الروايات العربية والافرنجية (٢) : ويكفى أن نقول ان غرناطة دافعت عن نفسها دفاعا مجيدا ، ولم تدخر لاجتناب قدرها جهدا بشريا ؛ وأن فروسيتها الشهيرة بذلت بقيادة زعيمها موسى ابن ابى الغسان أشجع فرسان عصره ، ضروبا رائعة من البسالة ، وخرج المسلمون من مدينتهم المحصورة غير مرة واثخنوا فى النصارى . ولكن الضيق كان يشتد بالمدينة المحصورة يوما فيوما ، وتقل مؤنها شيئا فشيئا ، ويتساقط جندها تباعا . وكانت مدى الربيع والصيف تستمد بعض المؤن من جهة البشرات من طريق جبل شلير (Sierra Nevada) ، فلما دخل الشتاء غطت هذه السهول والشعاب بالثلج الكثيف : وازدادت غرناطة ضيقا ، واشتد بأهلها الجوع والمرض ، وهم ابو عبد الله بمفاوضة فرديناند فى التسليم غير مرة لوأن كان يمنعه موسى بن ابى الغسان وتحمله الحماسة العامة ، فلما اشتد الخطب تقدم حاكم المدينة ابو القاسم عبد الملك ، وقرر أن المؤن تكاد تنفد ، وان الجوع اخذ يعصف بالشعب ، وان الدفاع عبث لايجدى : واتفقت كلمة الزعماء والقادة على التسليم ؛ وارسل ابو القاسم لمفاوضة فرديناند : فاستقبله بترحاب وحفاوة ؛ وتم الاتفاق على ان تسلم غرناطة بشروط كثيرة اهمها أن يؤمن المسلمون على انفسهم ودينهم وأموالهم ، وان لاتمس مساجدهم وشعائرهم وشرائعهم وتقاليدهم : وان يجوز منهم الى المغرب من شاء (٣) : وهكذا اذعنت غرناطة وسلمت ، وانتهت دولة الاسلام بالاندلس (صفر ٨٩٧ هـ ديسمبر سنة ١٤٩١ م) وطويت الى الابد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ الاسلام ، وقضى على تلك الحضارة الاندلسية الشامخة وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالفناء والمحو ، ودخل النصارى غرناطة فى الثانى من ربيع الاول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها وباقى قصورها وحصونها وخفق علم النصرانية ظافرا فوق صرح الاسلام المنهار

* * *

اما الملك التعس ابو عبد الله فقد قضت معاهدة التسليم أن يغادر غرناطة مع أسرته الى البشرات وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفى طاعته وأن يكون مقره فى قرية اندرش . ولما ذاعت أنباء التسليم اضطرم الشعب غضبا وسخطا على أبى عبد الله واعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه ؛ فبادر أبو عبد الله بالأهبة للسفر مع أسرته وخاصته وحشمه ، وبعث بأمواله ونفيس متاعه الى مقره الجديد فى اندرش . وفى نفس اليوم الذى دخل النصارى فيه غرناطة ، غادر أبو عبد الله قصره وموطن عزه ومجد آبائه الى الابد ؛ وخرج للقاء عدوه الظافر فى سرية من الفرسان والخاصة ، فاستقبله فرديناند فى محلته على ضفة شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول ان أبا عبد الله حين رأى فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند

---

(١) هو قصر الحمراء الكبير وما حوله من الحصون والابراج

(٢) راجع تفاصيل هذه الرواية فى أخبار العصر بانقضاء دولة بنى نصر ص ٤٣ - ٤٨ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ، وراجع كتابى مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام (الفصل السادس عشر)

(٣) راجع تفاصيل هذه الشروط فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦

بادر بمنعه وعانقه بعطف ورعاية ؛ ثم قدم اليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلا : « ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب فى اسبانيا . وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . هكذا قضى الله ، فكن فى ظفرك رحيما عادلا » . وسار أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند الى حيث كانت الملكة ايزابيلا ، فقدم اليها تحيـــاته وخضوعه ، ثم انحدر الى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته .

وهنا تقول الرواية أن أبا عبد الله اشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه : فانهمر فى الحال دمعه وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنــه كالرجال » . وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحا لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو : « زفرة العربى الأخيرة » El ultimo Sospiro del Moro . وما تزال قائمة حتى اليوم يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضا إن باب غرناطة الذى خرج منـه أبو عبد الله لآخر مرة قد سد عقب خروجه برجاء منه الى ملك قشتالة وبنى مكانه حتى لا يجوزه من بعده انسان (١)

لم يطل مكث أبى عبد الله بمقره الجديد فى اندرش ، ولم تمض أشهر قلائل حتى أدرك كما أدرك عمه من قبل أنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع الشاذ كعامل لملك قشتالة ، وكان فرديناند من جانبه ينظر الى وجوده بعين الريب ويخشى أن يكون مثار الفتنة ؛ فعول أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه فى الجواز الى افريقية ؛ ونزل لفرديناند عن حقوقه نظير مبلـــغ كبير ، ثم جاز بأسرته وماله ومتاعه من ثغر المرية الى المغرب الأقصى فى سفن أعدت له (١٤٩٣م) ونزل أولا بمليلة ، ثم قصد الى فاس واستقربها ، وتقدم الى ملكها السلطان محمد شيخ بنى وطاس الذين خلفوا بنى مرين فى الملك ، مستجيراً به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الاسلام فى الأندلس على يده ، متبرئا مما نسب اليه ، وذلك فى كتاب طويل مؤثر كتبه عن لسان كاتبه ووزيره محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، وسماه « بالروض العاطر الانفاس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس » . وقد افتتحها بعد الديباجة بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم   رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن   جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غـــدا ملكه بالرغم مستلبا   وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حـــكم من الله حتم لا مرد له   وهل مرد لحـكم منه منحتم
كنا ملوكا لنا فى أرضنـــا دول   نما بها تحت أفنان من النعم
فايقظتنا سهام للردى صبت   يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا   وأى ملك بظل الملك لم ينم

وهى طويلة جدا ، يمدح فيها ملوك فاس ويشيد بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر : ويشير ابو عبد الله بعد ذلك الى حوادث الاندلس ، ويعتذر عن نكبته : ويعترف بخطأه . ومن قوله فى ذلك « اللهم لا برئ فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكنى مستقيل . مستنيل . مستغيث ، مستغفر : وما أبرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء » بيد انه يدفع عن نفسه تهم الزيغ والتفريط والخيـانة بشدة ، ويقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خيرفيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ، مايقنع النفوس ويكفيها ؛ فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ، ولا يسوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهرانى الكفر ، ما وجدنا على ذلك مندوحه ولو شاسعة » ثم يرثى ملكه بعبارات مؤثرة منها : « ثم عزاء حسنا وصبراً جميلا ، عن أرض ورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا ، وسادلا عليهم من ستور الأملاء الطويلة سدولا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيرا كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . لم يستطع غير

(١) برسكوت ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ـــ وايرفنج (الفصل التاسع والتسعون) يذكر ايرفنج فى خاتمة كتابه (فتح غرناطة) أنه توجد فى متحف جنة العريف (جنراليف) بغرناطة صورة لابى عبد الله تمثله بوجه وسيم ولون جميل وشعر أصفر ، ويرتدي فيها ثوباً أصفر يظلله حرير اسود ، وقلنسوة من الحرير الاسود يعلوها التاج . ويوجد فى متحف مدريد الحربى ثوبان درعان يقال انهما كانا لابي عبد الله . ويبدو من حجمهما أن أبا عبد الله كان كبير القد قوي البنيه . ويخصص ايرفنج فى كتابه Tales of The Alhambra فصلان للذكريات والآثار الخاصة بابى عبد الله .

مورده صدوراً . وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، (١)

واستقر أبو عبد الله في فاس فى ظل بنى وطاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الاندلس رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الاندلس بعدذلك بنحو قرن (١٠٣٧ هـ — ١٦٢٨ م) ، وقضى أعواما طوالا فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، وتوفى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٤ م) . (٢) ودفن بفاس ، وترك ولدين هما يوسف وأحمد ، واستمر عقبه متصلا معروفا بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد الى هاوية البؤس والفاقة ، ويذكر لنا المقرى انه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات (٣) وفى بعض الروايات الاسبانية أن أباعبدالله توفى قتيلا فى موقعة نشبت بين السلطان احمدالوطاسى وبنى سعد الخوارج عليه فى وادى أبى عقبة وقاتل فيها أبو عبد الله جانب أصدقائه بنى وطاس وذلك سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) (٤) بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لان أبا عبد الله يكون فى هذا التاريخ قد جاوز السبعين ، ومن الصعب أن نصدق أنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الاعياء والهرم ، هذا الى أن الرواية الاسلامية فى هذا الموطن أدعى الى الترجيح والثقة

ويعرف أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس بالملك الصغير (وبالاسبانية El Rey Chico) تمييزا له من عمه أبى عبدالله الزغل ، ويلقب بالزغيبى ، أو عاثر الحظ تنويها بما أصابه وأصاب الاسلام على يده من الخطوب والمحن

*
* *

هذه قصة مصرع الاندلس ، وقصة آخر ملوكها
وصار ما كان من ملك ومن ملك   كما حكى عن خيال الطيف وسنان

تم البحث   محمد عبدالله عنان

(١) أورد المقري هذا الكتاب بنصه فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ — ٦٢٨ — وفى ازهار الرياض ص ٦٢ — ٨٧

(٢) وذكر المقرى فى أزهار الرياض أنه توفى سنة ٩٢٤ هـ (ص ٥٨) وهى رواية خاطئة

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧

(٤) راجع ايرفنج — فى الملحق الخاص بنهاية ابي عبد الله — وراجع الاستقصا فى تاريخ المغرب الاقصى للسلاوي ج ٢ ص ١٦٨

المشتهى

بحث طريف لم ينشر
للعلامة المغفور له احمد تيمور باشا

ذكره المقريزى فى خططه فى كلامه على متنزهات الفاطميين ، ولكن الذى ورد عنه فى النسخ التى اطلعنا عليها لا يعدو هذه الجملة المقتضبة « وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهى » وبعدها بياض متروك ، غير أن السيوطى نقل عنه فى كوكب الروضة مانصه : « قال المقريزى كان من مواضع الخلفاء الفاطميين التى أعدت للنزهة المشتهى بالروضة وكانوا يركبون اليه يوم السبت والثلاثاء فيعم الناس من الصدقات أنواع مابين ذهب ومآكل وحلوى وغير ذلك » ولا ريب فى أن هذه الزيادة من كلام المقريزى ، لأن السيوطى أعقب العبارة بقوله (انتهى) . وذكرها الشيخ عبد الغنى النجدي النابلسى فى رحلته المسماة بالحقيقة والمجاز (١) عن المقريزى بهذا النص أيضا ، فالظاهر أنهما نقلاها عن نسخة من الخطط بها هذه الزيادة أو عن تاريخ المقريزى المسمى بالسلوك . ثم أوردا بعدها أبيات الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض التى منها :

وطنى مصر وفيها وطرى   ولعينى مشتهاها مشتهاها

وقال الشيخ عبدالغنى النابلسى فى شرحه لديوانه : المشتهى الثانى اسم مكان فى مصر تدخل اليه فرقة من ماء النيل وهو متنزه مشهورا . وله ذكر فى الأشعار المصرية فى حسن المحاضرة وغيره من كتب الأدب والتاريخ انتهى . قلنا نعم أكثر الشعراء من ذكره وأورد السيوطى فى كوكب الروضة وحسن المحاضرة كثيراً من مقطعاتهم فيه ، ومنها قول ابن الفارض أيضاً مشيراً اليه والى المقياس والروضة وكان كثير التردد على المسجد الذى فيه أيام النيل

لقد بسطت فى بحر جسمك بسطة   أشارت اليها بالوفاء أصابع
فيا مشتهاها أنت مقياس قدسها   وأنت بها فى روضة الحسن يانع

ولكن الغريب ألا ترى فى كتب التاريخ ذكراً لموضعه بالروضة ولا نعرف من خبره غير القليل الذى رواه المقريزى ، ولولا

(١) الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للعلامة عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ كتاب مخطوط لم يطبع بعد ، وفيه فوائد كثيرة ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية واثنتان عندنا .

السيوطى والنابلسى ماوصل الينا هذا القليل أيضاً . وطالما تلمسنا مزيدا من العلم به فلم نكن نحلو بطائل ، فقصرنا الجهد على تحقيق موضعه وعولنا فى ذلك على الوسيلة الباقية لدينا وهى مراجعة ما كتب عن آثار الجزيرة وتتبع ماوقع فى اسمائها من التغيير جيلا بعد جيل الى زماننا هذا رجاء ان نرى فى الباقى منها ماله صلة بهذا المتنزه تهدينا اليه . ولابد لنا فى الوصول الى ذلك من قطع المراحل الثلاث الآتية .

المرحلة الاولى

كان أول ماتنبهنا اليه فى هذا البحث أننا تذكرنا رباطا يسمى رباط المشتهى مر بنا اسمه أثناء المطالعة فقلنا إن ظهر أنه بالروضة فلا ريب فى أنه لم يشتهر بذلك الا لكونه بنى فى موضع من هذا المتنزه وقد تكون له بقية تهدينا الى موضعه . ثم بادرنا الى خطط المقريزى فرأيناه يقول عنه « رباط المشتهى . هذا الرباط بروضة مصر مطل على النيل وكان به الشيخ المسلك بهاء الدين الكازرونى(١) ولله در شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورى حيث يقول :

بروضة المقياس صـــوفية ‎ ‎ هم منية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر أيادعلت ‎ ‎ وشيخهم ذاك له المنتهى(٢)

ثم رأينا السيوطى ذكره فى كوكب الروضة فنقل هذه العبارة عن الخطط ، ونقل عن تاريخ المقريزى (أى المسمى بالسلوك) أن بهاء الدين الكازرونى المذكور توفى بهذا الرباط ليلة الأحد الخامس من ذى الحجة سنة ٧٧٤ ثم نقل ترجمته عن إنباء الغمر للحافظ ابن حجر ونصها « محمد بن عبدالله الكازرونى الشيخ بهاء الدين قدم مصر فصحب الشيخ احمد الحريرى صاحب الشيخ ياقوت الحبشى (٣) تلميذ أبى العباس المرسى وانقطع بعده بالمشتهى من الروضة

(١) فى موضع (بهاء الدين الكازرونى) بياض فى نسخ الخطط التى بأيدينا ، ولكن العبارة منقولة عنها فى كوكب الروضة للسيوطى فأكلنا منه ما كان فى موضع البياض . (٢) فيه تورية باسم مكان كان بالروضة لا نعلم عنه شيئاً سوى قول السيوطى فى كوكب الروضة : « المشتهى ذكره المقريزى فى الخطط وقد بيض له فلم يذكر فيه شيئاً ، وقد سكن به من الصوفية السادة الوفائية » ثم ذكر ترجمة السيد محمد وفا الاكبر والد أهل البيت الوفائى المتوفى سنة ٧٦٥ .

(٣) كذا فى نسختين من كوكب الروضة وكان حبشيا ، فلا خطأ فى العبارة إلا أنه كان مشهوراً بالعرشى وكانت وفاته سنة ٧٠٧ بالاسكندرية وقبره بها معروف يزار .

وكان الناس يترددون اليه ويعتقدونه ، وكان الشيخ أكمل الدين شيخ الشيخونية كثير التعظيم له ، وانقطع اليه البدر البشتكى وكتب له أشياء من تصانيف الشيخ محى الدين بن العربى ، وكان يكثر الثناء عليه ، وكانت وفاته فى ذى الحجة ، وأرخه ابن دقماق ليلة الاحد خامس ذى القعدة) انتهى . قلنا وقد وقفنا على ترجمته أيضا فى الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر المذكور فرأيناه أرخ وفاته بسنة ٧٧٣ أى بنقصان سنة واحدة عن قول المقريزى

ولم يزل لهذا الرباط بقية الى اليوم ، وذكره على مبارك باشا فى موضعين من خططه أحدهما فى مساجد الروضة باسم زاوية المشتهى (ج ١٨ ص ١٤) فنقل عبارة المقريزى والسيوطى ثم قال « وفى زماننا هذا يعنى سنة احدى وتسعين ومائتين وألف ، الزاوية المذكورة مشهورة بزاوية الشيخ الكازرونى وموضعها غربى سراية الخديو اسماعيل وبنتيها سعادة والدة باشا والدة الخديو المذكور ، وأقام بها الشيخ على القشلان أحد المشاهير من رجال الطريقة القادرية ومعه سبعة دراويش ورتبت بها مولدا سنويا ، وفى كل شهر ثلاثمائة قرش ديوانية ورتبت لها من الشمع والبن والفحم والزيت ما يلزم لها يوميا » . والثانى فى كلامه على الرُّبُط (ج ٦ ص ٥٣) فذكره باسم رباط المشتهى ونقل عبارة المقريزى المتقدم ذكرها ثم قال « وهذا الرباط يعرف اليوم بجامع المشتهى وقد ذكرناه فى كتابنا المسمى مقياس النيل فارجع اليه ان شئت » انتهى . قلنا لم نر أحدا يعرفه اليوم بذلك بل هو معروف بزاوية الكازرونى كما ذكر فى عبارته الأولى . وقد زرنا هذه الزاوية فرأيناها تلاصق السور الغربى لقصر الخديو اسماعيل وحديقته ، وكان القصر بينها وبين النيل ، ولاريب فى أنها بقية الرباط وأن سائره كان ممتدا فى جزء من موضع القصر حتى يكون مطلا على النيل كما ذكروه عنه فى التواريخ ، والباقى من هذا القصر الآن أطلال ماثلة شرقى الزاوية وفى حائطها الجنوبى قبة مدفون بها الكازرونى ، وعلى قبره تابوت من الخشب مغطى بستر أخضر من الجوخ عملته له أم الأمير حسين (١) ابن الخديو اسماعيل ، وفى الجانب الغربى من هذا الستر رقعة حمراء مكتوب فيها بالبياض (هذا مقام سيدى محمد الكازرونى)وفى جانبه الشرقى رقعة

(١) ولد سنة ١٢٧٠ وتولى سلطاناً على مصر فى ثانى صفر سنة ١٣٣٣ وتوفى ظهر الثلاثاء ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ .

مثلها مكتوب فيها (جددت هذا الستر دولتلو فادن أفندى (١) والدة دولتلو حسين كامل باشا ثانى نجل حضرة الخديو حالا ١٢٨٩) انتهى بنصه ورسمه. وليس بالزاوية اليوم الا خادم واحد، واما الشيخ على القشلان القادرى شيخ صوفيتها فقد دفن فى الايوان الشرقى بالزاوية القادرية المسماة قديما بالزاوية العدوية والمعروفة الآن بجامع سيدى عُلَىّ (بالتصغير) خارج باب القرافة، وقد فصلنا الكلام على هذا الجامع وما به من القبور فى ص ٢٩ — ٣٨ من رسالتنا (اليزيدية ومنشأ نحلتهم) ولما زرناه وقت تأليف الرسالة سألنا خدمته عما يعرفونه عن هذا الشيخ فأخبرونا أنه الذى كان مقيما بالمنيل فى زاوية الكازرونى ومات من نحو خمس وأربعين سنة.

وموقع هذه الزاوية فى وسط الجزيرة بقرب شاطئها الشرقى، وكان المتنزه المسمى بالمشتهى ممتداً منها الى الجهة الشمال كما سنبينه فى المرحلة الثانية وربما كان ممتداً فى الجهة الجنوبية منها أيضاً.

المرحلة الثانية

فى هذه المرحلة نترك زاوية الكازرونى أو رباط المشتهى ونسير شمالا حتى نصل الى قرية صغيرة تعرف الآن بكفر قايتباى (٢) فنرى فى شمالها مسجداً ملاصقا لدورها يعرف بجامع قايتباى (٣) قد نقش على بابه اسم السلطان الملك الأشرف أبى النصر قايتباى وهو ثالث تغيير وقع فى اسمه، فقد كان قديما يعرف بجامع الفخر باسم منشئه القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش المشهور بالفخر. وكان نصرانيا ثم أسلم وحسن اسلامه ومات سنة ٧٣٢.

(١) كان المتبع فى الاسرة المحمدية العلوية تلقيب زجات أمرائها بقادين أفندى إذا كن من الجوارى الجركسيات على ما كان متبعاً أيضا فى الاسرة السلطانية العثمانية ومعنى قادين السيدة، وأفندى المولى والامير، فالمراد مولاتنا السيدة. وأما اذا كن من بنات الامراء بقى لهن لقب الاميرات وهو هانم أفندى. وصوابه خانم مؤنث خان والمعنى مولاتنا الاميرة. أما الذكور فكانوا يلقبون بالبك الى أن يرقوا الى رتبة الباشا ويخاطبون بأفندينا أى مولانا وأميرنا، ثم لما كثر الاختلاط بالافرنج فى العصر الاسماعيلى اقتبسوا بعض ألقابهم فزيد على ألقاب الذكور (البرنس Prince) وعلى ألقاب الاناث (البرنسيس Princesse) ومعناهما الامير والاميرة، فكان يقال أفندينا البرنس فلان بك أو باشا والبرنسيس فلانة هانم أفندى، وقد أدركنا استعمال هذه الالقاب الى أن اقتصر فى النظام الجديد للاسرة على تلقيبهم بالامراء والاميرات وخصت طائفة منهم بالنبلاء على ما هو مبين فى النظام المذكور.

(٢) و (٣) وباسان العامة (قايد بيه).

قال السيوطى فى كوكب الروضة ثم جدده الصاحب شمس الدين المقسى فصار يقال له جامع المقسى ونسى اسم الفخر، ثم جدده سلطان عصرنا وزماننا الملك الأشرف أبو النصر قايتباى وابتدأ فيه سنة ٨٨٦ وعمل فيه ناعورة على وضع غريب بحيث تدور بحمار ينقل قدميه وهو واقف من غير أن يمشى ولا يدور وركب عليها طاحونا فصار يسمى جامع السلطان ونسى اسم المقسى كما نسى اسم الفخر ثم زاد فيه سنة ٨٩١ وأنشأ حوله الغراس والعمائر الحسنة فعمرت تلك البقعة وأحييت الروضة بعد ما كادت تدرس محاسنها انتهى المراد منه (١). قلنا ثم نزل به جلال الدين السيوطى المذكور أو سكن قريبا منه فعرف به ثم عاد إليه اسم قايتباى لبقاء اسمه منقوشاً على بابه: وفى تاريخ الجبرتى (ج ٣ ص ١٩١ طبع بولاق) خبر حريق وقع بهذا المسجد سنة ١٢١٦ يقول عنه فى حوادث يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول «وفى ذلك اليوم احترق جامع قايتباى الكائن بالروضة المعروف بجامع السيوطى، والسبب فى ذلك أن الفرنسيس كانوا يصنعون البارود بالجنينة المجاورة للجامع فجعلوا ذلك الجامع مخزنا لما يصنعونه فبقى ذلك بالمسجد وذهب الفرنسيس وتركوه كما هو وجانب كبريت فى أنخاخ أيضا فدخل فلاح ومعه غلام وبيده قصبة يشرب بها الدخان وكأنه فتح ماعونا من ظرف (٢) البارود ليأخذ منه شيئا ونسى المسكين القصبة بيده فاصابت البارود فاشتعل جميعه وخرج له صوت هائل ودخان عظيم واحترق المسجد واستمرت النار فى سقفه بطول النهار واحترق الرجل والغلام». وقد ذكر على باشا مبارك هذا المسجد فى ثلاثة مواضع من خططه أولها فى الجزء الخامس ص ٦٧ باسم جامع الفخر فى كلامه على جوامع القاهرة عامة فى حرف الفاء،

(١) يظهر أن قوله (سنة ٨٩١) محرف عن ٨٩٦ أو أن يكون العمل استمر فيه بالاكمال والتحسين الى سنة ٨٩٦ فقد جاء عنه فى تاريخ ابن إياس فى حوادث رجب من تلك السنة ما نصه: «وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى أنشأه بالروضة وجاء فى غاية الحسن، وكان البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ويجتمع الجم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقدة عظيمة ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم، واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل هذا الامر» انتهى. وابن الطولونى المذكور كان كبير المهندسين فى ذلك الزمن وتوفى سنة ٩٢٣ هـ كما فى تاريخ ابن إياس (ج ٣ ص ١٠٧).

(٢) لعل الصواب من ظروف.

والثانى فى ص ٦٩ من هذا الجزء فى حرف القاف باسم جامع قايتباى بالروضة ، والثالث فى الجزء الثامن عشر ص ١٣ فى كلامه على جوامع الروضة خاصة وقال فى الموضع الثانى عن الحريق الذى وقع به ما نصه « ثم بعد مدة جدد ما احترق منه واقيمت شعائره الى الآن وكان يعرف أيضا بجامع السيوطى لاقامة الشيخ جلال الدين السيوطى فيه أيام نزوله بالروضة » انتهى .

قلنا وقد وصلنا فى هذه المرحلة الى أن مسجد قايتباى كان يعرف بجامع السيوطى لنزوله فيه أو لتردده عليه بسبب سكناه بجواره واذا رجعنا الى مترجمى هــذا الامام نراهم متفقين على اقامته فى أواخر أيامه بالروضة ووفاته بها بعد أن مرض أسبوعا وصرح الاسدى فى طبقات الشافعية بوفاته سنة ٩١١ بالروضة بالمشتهى وعلى هــذا فمسجد قايتباى والأماكن المجاورة له كانت داخلة فى حيز هذا المتنزه أيضا وكذلك ما بينها وبين زاوية الكازرونى من المواضع . غير أن قول الأسدى كما يحتمل هذا الوجه فانه يحتمل أيضا أن يكون مراده بالمشتهى رباط المشتهى المعروف بزاوية الكازرونى على تقدير أن يكون السيوطى انتقل اليه وسكنه قبل وفاته وتوفى به ولكننا نرجح الأول لبعض مرجحات اطمأننا اليها : منها أنه الأشبه بما كان عليه هذا المتنزه من العظم المظنون فى أمثاله من متنزهات الخلفاء الفاطميين إذ لا يعقل أنه كان محصوراً فى بقعة ضيقة لا تتعدى مكان الرباط وما حواليه ، ولهذا نرجح أنه كان ممتداً فى الجهة الجنوبية لهذا الرباط أيضا وهو ما سنعالج تحقيقه فى المرحلة الثالثة .

المرحلة الثالثة

إذا تركنا زاوية الكازرونى وسرنا فى الجهة الجنوبية منها فاننا نصل الى زاوية تعرف بزاوية الأباريق واقعة على قيد غلوة منها شمالى قصر على باشا شريف بجانب السور المحيط بحديقته وكانت قديما مسجدا جامعا أنشأه قائد القواد غبن (١) أحد خدام الحاكم

(١) فى خطط المقريزي أن الحاكم بأمر الله غضب عليه فقطع إحدي يديه ، وفى سنة ٤٠٤ قطع الأخرى ثم قطع لسانه . وفى الانتصار لابن دقماق أنه مات بعد ذلك سنة ٤٠٥ وقد ورد اسمه مرسوماً بالباء الموحدة فى نسختين من كوكب الروضة وورد بالمثناة التحتية فى نسخ الخطط المقريزية المطبوعة ورأيت فى نسخة عندى مخطوطة من الاشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفى نصا على أنه « بالباء الموحده التحتية » ولم يذكر هذا النص فى النسخة المطبوعة من هذا الكتاب فالظاهر أنها حاشية كتبها بعضهم على النسخة فأدخلها الناسخ فى الاصل وعلى أى حال فهو نص يصح لنا الاعتماد عليه حتى نقف على ما يناقضه .

بأمر الله الفاطمى فعرف به كما فى كوكب الروضة للسيوطى قال وقد صار يسمى الآن جامع الأباريق بولى مدفون بجواره ونسى اسم غبن فلا يعرفه الآن أحد إلا من له نظر فى التواريخ . انتهى . وذكر على باشا مبارك فى خططه أن هذه الزاوية بنيت على جزء من جامع غبن وجددها أخيراً على باشا شريف ابن شريف باشا . قلنا وقد زرناها فرأينا على بابها كتابة منقوشة فى الحجر نصها : « مقام سيدى احمد الاباريق ، أنشأ هذا المسجد سعادة عبد الحميد بك شريف فى غرة شهر شعبان المكرم من سنة ١٣٢٧ هجرية » وبداخلها من الغرب قبة على حجرة بها ضريح الشيخ وعليه ستر أخضر عمله له عبد الحميد بك المذكور سنة ١٣٢٨ ، ثم توفى بعد ذلك بقليل وهو ابن على باشا شريف المتقدم ذكره وقد يكون المراد بانشائه هذا المسجد اصلاح ما تشعث فيه من بناء والده . وفى هذه الزاوية صلوا على الامام السيوطى لما شيعوا جنازته من الروضة الى حوش قوصون قال الاستاذ الشعرانى فى ترجمته بذيل طبقاته « ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته فحضرت الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأباريق بالروضة عقب صلاة الجمعة وفى سبيل المؤمنين عند الجامع الجديد بمصر العتيقة » .

فيتضح مما تقدم أن زاوية الكازرونى المسماة قديما برباط المشتهى واقعة بلا ريب فى موضع من هذا المتنزه ويعلم من موقعها أنه كان فى وسط الجزيرة على الشاطىء الشرقى منها ويدخل فيه ما فى شمالى هذه الزاوية من المواضع الى جامع قايتباى . ثم اذا صح أن هذه الزاوية واقعة فى وسط المشتهى كما يغلب على الظن كان أيضا ممتداً فى الجهة الجنوبية منها الى زاوية الأباريق أى فيكون موقعه فيما بين الأباريق وجامع قايتباى وربما كان زائداً عن ذلك جنوبا وشمالا والله أعلم

تتمـــة

فى توضيح أماكن ذكرت أسماؤها بالمصور (١)

منها جامع عبد الرحمن بن عوف فان العامة تزعم أن القبر الذى به للصحابى المشهور أحد العشرة المبشرين بالجنة رضى الله عنهم والصواب أنه مدفون بالبقيع وبهذا المسجد قبر آخر دفن فيه حسن باشا المناسترلى الذى كان كتخدا مصر زمن عباس باشا الكبير أى وزيراً للولاية وهو من المساجد القديمة بالروضة أنشأه بدر الجمالى زمن المستنصر الفاطمى وكان يسمى جامع المقياس ثم جدده الصالح نجم الدين أيوب ثم هدمه المؤيد شيخ ووسعه

(١) لم نجد هذا المصور مع المقالة (الرسالة)

و لم يتمه فاتمه بعــده الظاهر جقمق ثم عمره قانصوه الغورى ثم خرب وانتهك الفرنسيس حرمته زمن احتلالهم لمصر ثم جددحسن باشا المناسترلى البناء القائم منه الآن على الجزء الشمالى منه ولما توفى دفن فيه وكان فى الاصل كبيرا ممتداً من الجنوب الى الشاطىء ومتصلا بالدرج التى كانت على النيل وهى التى تزعم العامة ان موسى عليه السلام قذف منها بتابوته فى اليم ، ويرى الفرنسيس فى كتابهم (وصف مصر) ان أبا جعفر النحاس رمى من هذه الدرج فى النيل لما جلس عليها يقطع بيتاً من الشعر لظنهم أنه يسحر النيل (١).

ومنها زاوية أبى يزيد البسطامى فان العامة تزعم أيضا أنه مدفون بها والصواب أنه مدفون ببسطام وقبره معروف بها كما فى معجم البلدان لياقوت ، واسمه طيفور ووفاته سنة ٢٦١ أو ٢٦٤ كما فى وفيات الأعيان لابن خلكان . وانما نسبت هذه الزاوية للبسطامى لأن بانيها من ذريته وهو الشيخ محمد بن أصيل بن مهدى الهمذانى ثم جعلها فتح الدين صدقة بن زين الدين أبى بكر رئيس الخلافة جامعاً فى حدود سنة ٧٧٠ فعرفت بجامع الريس وهى معروفة اليوم بزاوية البسطامى .

ومنها جامع الديرينى وهو الشيخ عبد العزيز الديرينى المتوفى سنة ٦٩٤ فانهم يزعمون أنه مدفون به والصواب أنه مدفون بديرين وقبره بهامعروف يزار كما فى المنهل الصافى وطبقات الشعرانى

ومنها مقام الأربعين ولا مقام بهذا المكان وانما هى شجرة سدر تعتقد العامة فيها ذلك ، وقد وضع سدنتها بجوارها زيراً وأكوازاً لشرب الزوار والسابلة

ومنها شجرة المندورة وهى من الجيزة وللعامة فيها اعتقاد ومزاعم غريبة والظاهر أن اسمها محرف عن المنذورة بالذال المعجمة والمراد المنذور لها والله اعلم

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس النحوى المصري المتوفى سنة ٣٣٨ أو ٣٣٧ ترجمه ابن خلكان وقال عن سبب وفاته : « إنه جلس على درج المقياس على شاطىء النيل وهو فى أيام زيادته وهو يقطع بالعروض شيئا من الشعر فقال بعض العوام هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الاسعار فدفعه برجله فى النيل فلم يوقف له على خبر » .

عثمان بن ابى العلاء

الرجل الذى غزا الاسبان ٧٣٢ غزوة

للدكتور عبدالوهاب عزام

ملك بنى مرين يعم المغرب الأقصى ، ويرث دولة الموحدين .

وهذا سلطانهم السادس يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥ — ٧٠٦ ه) يسير الجحافل لتمكين ملكه ، ويجتهد ليكسو الدولة المرينية رونق الحضارة ، وبهاء الملك ، ولكن جماعة من بنى مرين حسدوا بنى عمومتهم على السلطان ، ونفسوا عليهم الرياسة ، وزعموا أنهم أحق منهم بميراث عبد الحق فثاروا على السلطان يوسف ، واعتصموا بجبال ورغة ، فأنزلهم السلطان من صياصيهم وألجمهم السيف . فأشفق أعياص بن مرين على أنفسهم ولحقوا ببنى الأحمر بالاندلس سنة ٦٨٦

ثم رجع الى المغرب بعد سنين أحدهم : عثمان بن أبى العلاء ادريس ابن عبد الله بن عبد الحق ، لينازع بنى عمه السلطان ، فثار فى جبال غمارة فاشتملت عليها ناره واستطارت منها ثورته ، فعمت بلاداً كثيرة ، ولجأ اليه كل مخالف من بنى مرين وغيرهم .

ومات يوسف وعثمان فى ثورته فخلفه ابنه أبو ثابت (٧٠٦ — ٧٠٨) فسير الجحافل الى عثمان فهزمهم ، ومد على رغم أبى ثابت سلطانه الى بلاد أخرى فنهض أبو ثابت نفسه فى جنود لا قبل لعثمان بها فخلى البلاد واعتصم بسبته ، وهى يومئذ فى قبضة بنى الاحمر

ومات أبو ثابت فخلفه أخوه أبو الربيع سنة ٧٠٨ واصطلح بنو مرين وبنو الاحمر فضاق المغرب على عثمان بن أبى العلاء . فولى وجهه شطر الاندلس فيمن تبعه من قرابته .

* * *

لم يكن للمسلمين فى الاندلس الا مملكة غرناطة الضيقة وقد ألح العدو عليها وصمم على محوها . واستماتت فى الدفاع عنها المسلمون اذ كانت الملجأ الأخير ، والوزر الذى ليس وراءه الا الموت أو الاستعباد . وكان بنو مرين يرسلون جيوشهم مدداً لبنى الاحمر حينا ، ويسيرون الى الجهاد بأنفسهم حينا . وكان أولو النجدة

والصرامة ، كابن ابى العلاء ، يفدون على الاندلس مجاهدين مرابطين غضبا لدينهم ، وحمية لاخوانهم .

جاء عثمان الاندلس فتولى «مشيخة الغزاة» وحسن بلاؤه ، وعظمت مكانته فكان شجى فى حلوق الاسبان ، وكان غصة لبنى الأحمر شاركهم فى سؤددهم حتى كاد يستأثر بالأمر دونهم وهو من قبل خصم قومه ملوك المغرب ، ثار عليهم وزلزل دولتهم زمانا . لم يكن عثمان ملكا ولكنه :

كان من نفسه الكبيرة فى جيش ، ومن كبرياه فى سلطان

تولى زعامة الغزاة ثلاثا وعشرين سنة فما وهن عزمه ، ولا فل حده ، ولا أغمد سيفه ، ولا خلا سرجه ،

وما كان الا النار فى كل موضع تثير غبارا فى مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب ، وتطرق على المنايا الابواب . وما الجيوش الجرارة ، والحروب المستعرة فى همة الرجل العظيم اذا صمم .

فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

حسبى من الافاضة فى وصف عثمان ، والاشادة بذكره أن أنقل هنا ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :

« هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال والكماة ، واحد الجلالة ، ليث الاقدام والبسالة ، علم الأعلام ، حامى ذمار الاسـلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المسطورة ، وإمام الصفوف ، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف ، سيف الجهاد ، وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهمم ، الثابت القدم ، الهمام الماجد الأرضى ، البطل الباسل الأمضى ، المقدس المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق .

كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة فى سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة ، وقطع عمره مجاهدا مجتهدا فى طاعة الرب ، محتسبا فى ادارة الحرب ، ماضى العزائم فى جهاد الكفار ، مصادما بين جموعهم تدفق التيار ، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ، ما سار ذكره فى الأقطار ، أشهر من المثل السيار ، حتى توفى رحمه الله وغبار الجهاد طى أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفر واحزابه . فمات على ماعاش عليه ، وفى ملحمة الجهاد قبضه الله اليه ، واستأثر به سعيدا مرتضى ، وسيفه على رأس ملك الروم منتضى ، مقدمة قبول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجلاد ، ودليلا على نيته الصالحة ، وتجارته الرابحة .

فارتجت الأندلس لبعده ، أتحفه الله برحمة من عنده . توفى يوم الاحد الثانى لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة . رحمه الله » .

عبد الوهاب عزام

صحائف المجد والخلود

الفن المصرى القديم

— ٣ —

مصر ملتقى ثقافات العالم :

مرت بمصر فى مدى نيف وسبعة آلاف من السنين ، من عهدما قبل التاريخ حتى يومنا هذا ، أربع مدنيات عظيمة : المدنية المصرية أو الفرعونية . وهى عصر قدماء المصريين وملوكهم حتى دخول الاغريق مصر واتخاذهم الاسكندرية مقراً للحكم . والمدنية الاسكندرية ، وهى عصر الاغريق والرومان الذين كانت الاسكندرية فى عهدهم عاصمة البلاد . والمدنية المسيحية (أو القبطية البيزنطية) وهى عصر خضوع مصر للديانة المسيحية وظهور الاقباط . ثم المدنية الاسلامية ، وتبدأ بدخول العرب مصر وتغلب الديانة الاسلامية على البلاد .

ومن ذلك تجمع مصر لنا فى آثارها أعظم سجل للحضارات البارزة ، وأجل كتاب يقرأ عن العصور المتعاقبة فى تاريخ الانسانية . دع عنك ماشهدت مصر من مختلف الشعوب التى تتابعت على أرضها فى الفتوح المتوالية ، وماتركت هذه الدول فى وادى النيل من صور للثقافات المتباينة . حتى لتكفى مصر وحدها ان تعطى لمن يرغب فى دراسة الفن كل شىء ، وتكفيه المؤونة فى كل ما يريد علمه . وانا اذا وضعنا تحت عينى القارىء بأن أديم مصر قد كان مسرحاً كبيراً لغالب الأمم التى عرفها التاريخ ، مثلت فيه كل واحدة دورها ، وصرعت عليه أمة بعد أمة . وإذا أشرنا الى أن كل أمة من هذه الامم تركت على هذا الاديم أثراً من ثقافتها ، وأثراً من نفسيتها ، ان كبيراً أو ضئيلا . فقد تكون مصر وحدها أجدر دول التاريخ بالدراسة . فضلا عن أنها المصدر الاول للمدنيات جميعاً .

ويكفى لنقرر كيف جمعت مصر فى أرضها حضارات العالم بأجمعه بأن نشير الى العناصر التى دخلت فيها من الحروب والفتوح ، مدى التاريخ القديم حتى يومنا هذا . فقد تعاقب على مصر من عناصر الأمم المختلفة : الساميون . والهكسوس (البدو الرعاة) . واللوبيون . والأتيوبيون (النوبيون) . والأشوريون . والفرس . والاغريق . والرومان . والعرب . والمغـــاربة . والاكراد . والشراكسة . والاتراك . والفرنسيون . والانجليز . وقد احتك بها فوق ذلك من الامم الأخرى : الحثيون . والكلدانيون . والفينيقيون . فلا عجب أن تكون مصر خير أمة يجب دراسة تاريخ الفن فيها . بل ما أجدرها أن تجتمع حولها الدنيا الحديثة لترقب فى آثارها وسجلاتها صوراً خالدة من الدنيا القديمة . وتقرأ فى مظاهرها المتباينة كتابا جليلا من كتب المجد لم تجمعه أمة غير مصر .

وقد يجب أن تعتبر مصر ملتقى ثقافات الشرق بالغرب . بل ان ثقافة مصر ذاتها نشرت على البلاد المجاورة لها نوراً كان له الأثر الظاهر فى حضارتها وتفكيرها .

وقد نأخذ دليلا على ذلك فتوح مصر القديمة على يد جيوش « تحوتمس الثالث » و « رمسيس الثانى » مثلا . فان أمثال هذه الفتوحات قد ترك فى كل مكان ، من الغرب للشرق ، ومن الشمال للجنوب ، أثراً ، لا تزال بقاياه تشاهد فى الآثار الموجودة حتى أقصى الفرس ، وحتى أقصى بلاد المغرب ، وحتى أواسط افريقيا ،

٭٭٭

ولكن مصر ظلت مدى هذه التطورات التى مرت بها محافظة على قومية خاصة فى فنها لم تعرف لها ظاهرة فى أى أمة أخرى . فنى عهد المدنيات الاربع المتعاقبة على تاريخها ، التى ذكرناها ، وفى عهد الاقتباسات الفنية القليلة التى دخلت على الفن المصرى فى بعض فترات من التاريخ ، كان للفن عندها طابعه الخاص . لا يخطىء قوميته أو روحيته الملازمة له . فهى ان كانت فى إبان المدنيات الاربع قد انتقلت من عصر الى عصر ، يكاد يكون كل واحد منه غريبا عن أخيه فى ثقافته ونظامه ، حتى ليظهر جديداً كل الجدة عما كان مألوفاً من قبل . وان كانت الحياة قد تطورت عندها ، من مصرية فرعونية ، الى أغريقية ورومانية ، الى مسيحية وقبطية ، الى اسلامية ، الا أن الفن فى إبان هذه الثقافات الطارئة كان مصرياً . مصرى الشخصية والروح . أو أن البلاد تمصرفيها الفن ، أو هى مصرت فن كل مدنية من تلك المدنيات ، وذلك ليلائم طبيعة مصر ، ويتمشى مع ذوقها .

وان كان من شاهد يطلب على ذلك ، فقد نشير الى آثار الفن فى العصر الذى حكمت فى مصر فيه الأغريق والرومان مثلا ، ونقارنه فى نفس الوقت بما كان من آثار الفن الاغريقى والرومانى فى بلاد الاغريق والرومان ذاتهما . فلا شك سيظهر ذلك الفرق واضحاً بين روحية الفن فى المكانين . فى الاغريق والرومان متشحاً بذلك الوشاح الظاهر من الاجهاد والتعمق . وفى مصر بسيطاً وديعا رشيقاً .

وكما نطبق هذه الحال على العصر الاغريقى والرومانى ، نطبقها ايضا على العصر المسيحى القبطى ، الذى كان فاشيا فيه نوع الفن البيزنطى . فان نفس تلك الظاهرة التى بيناها ستفرق ما فى مصر عما كان مألوفا فى ذلك العهد من نفس نوع الفن فى القسطنطينية مثلا ، مهبط الفن البيزنطى .

وهكذا ايضا الفن الاسلامى . فقد يكفى بلا كبير عناء مقارنة ما فى مصر من آثاره بما هو موجود فى بلاد المغرب مثلا التى نقلت الى مصر الاسلوب الفاطمى . أو ما هو موجود منه فى بلاد العراق وسوريا اللتين ارتبطت مصر فى طويل من الزمن معهما فى عصر من الاسلوب والشكل . فقد خضع الفن الاسلامى نفسه فى جو مصر لمزاج أهل مصر ، وللروح المصرية . فى حين أن له فى كل مكان ، وفى بلاد الاسلام جميعا ، صبغة عالمية . فاضطر الفن لذلك أن يتكيف فى الارض المصرية بالطابع الذى تتميز به مصر دائما ، وهو طابع الاحتشام والبساطة والرقة الذى يعطى مع ذلك أروع وألطف ما يكون من التأثير .

وحينئذ فقد بقى لمصر فنها الخاص بها ، المنطبع بالطابع المصرى الصميم ، الذى لم يخطىء غرضه ، ولم يشذ عن طريقه ، منذ أخذت مصر مكانها تحت الشمس . وفى ذلك سر من اسرار عظمة مصر الفنية التى يعترف لها بها التاريخ .

واذن فالفن المصرى جدير بالدراسة قبل كل الفنون الاخرى . اذ هو فضلا عن كونه فنا محليا غير مقتبس فى أصله من أى بلاد اجنبية ، بخلاف غيره . وفضلا عن أنه الفن الوحيد الذى احتفظ مدى التاريخ بشخصيته الخاصة التى اقترنت باسم مصر . فانه المرآة التى تعكس علينا ثقافات الاجيال المتعاقبة مجتمعة فى سجل واحد ، هو الآثار المصرية القديمة .

ودون ذلك يجب ألا ينسى فضل الفن المصرى على فنون العالم : فى أنه المصدر أو المدرسة الاولى التى تلقت عنها دروس الفن أمم الارض جميعا .

« يتبع »

أحمد يوسف
بالمتحف المصرى

من الصميم

يا أختاه . . .

إلى الفتاة المصرية :

صحراء الحياة موحشة يا أختاه ، تشيع فى شعابها المخاوف وتحتنز على هضابها الوحوش، وتكمن فى كهوفها الحتوف ، وتحوم فى سمائها العقبان . . .

ومرحلة الجهاد طويلة . . .

ونحن المدلجين فى صحراء الجهاد ينقصنا رفاق يحملون عنا بعض ما ننوء به حتى لا يأخذنا اليأس ، ويحملون أمامنا المشاعل حتى لا نأخذ على غير الطريق .

نحن بحمد الله أقوياء ما سلبنا الألم الأمل وإن طال وغلا ، وما غلبنا اليأس على بعد الشقة واتصال المشقة . . . ولكن :

إذا الحمل الثقيل توازعته أكف القوم هان على الرقاب

فى عنقك الجميل دين يا أختاه : وعلى عطفك الرقيق تبعة هائلة :

إن كنت تؤمنين بحق الوطن فاستعدى لتعدى لمصر جيلا جديداً أمينا على الميثاق ، متينا بالاخلاق ، قويا لا يهاب فى سبيل مصر الموت، مؤمنا لا يرتاب فى حق بلاده وصدق جهاده

إن كنت أما : فعلى طفلك الدين أولا ، ثم حدثيه عن مصر ، اقرئى له صحف المجد الأولى ، صحف أجداده من سادة الزمان ، وقادة العالم وشادة الهرم ، لقنيه تاريخ الأبطال فربما نفعت الذكرى ، حدثيه عن (مصطفى كامل) المجاهد المؤمن الشاب كيف جاهد ولما يتخط العشرين فتداولته ألوان العسف وتناولته ضروب الارهاق ، فلم يصرفه ذلك عن السبيل ولم يصدفه عن الغاية ، حدثيه عن (محمد فريد) كيف ضحى فى سبيل مصر بالمنصب والراحة والصحة والمال وكيف مات غريبا واهتفى معه : لتحى التضحية !

فاذا فرغت من تاريخ أشراق النهضة فحدثيه عن انبثاق الثورة فقصى عليه من روائع آيات التضحية وبدائع صفحات الوطنية ما يهز نفوس المخلصين فخرا ، ويحفز نفوس الناكصين فى طريق المجد .. هناك (سعد زغلول) حمل الراية فى أعصب الظروف وقد تساقط من حولها المجاهدون وكان له فى مناهضة الاحتلال ومعارضة أهله جولات لا يزال يذكرها الذاكرون

وشىء آخر أحب أن تلفتى نظر بنيك إليه :

فى الألزاس واللورين نوعان من (الشيكولات) أحدهما مر والآخر حلو ، والوالدة تبدأ فتعطى لطفلها المر منهما ، فاذا بكى أفهمته أن هذه ألمانيا ... سبب هذه المرارة ثم أعقبت فأعطته القطعة الحلوة فيصفو ويبسم فتفهمه أن هذه فرنسا .. حلوة كهذه القطعة ، هنا قياس طرفه الثانى محذوف للظروف فاستخلصى منه النتيجة والحكمة والموعظة إن كنت مدرسة

فرسالتك مهمة ، ومجالك متسع ، وأثرك بعيد ، وخطرك شديد ، ودورك يبتدىء حيث ينتهى دور الأم : لقد أعدت لك التربة ، ومهدت لك منها ما جف فغرسى فيها الأصول الطيبة بالموعظة الحسنة والقدوة الحسنة ، علمى تلميذتك كيف تفنى فى الحق وتغضب للكرامة وتثور للوطن وتستشهد فى العقيدة والواجب فى أسماء بنت أبى بكر يوم ساقت ابنها عبد الله إلى الموت ، وفى الخنساء يوم فقدت بنيها الأربعة ، وفى المرأة الاسبرطية يوم صرخت فى ولدها الجندى « عد بترسك أو محمولا عليه ، فى كل اولئك صور من الفناء فى الحق والواجب ..وأخيرا :

ملاحظة لست أرفع القلم دون أن أثبتها

قابلت فى قطار الصعيد فتاة مدرسة فى القاهرة ومعها طالبات لا تقل صغراهن عن ست عشرة سنة فاتصلت بيننا أسباب الحديث وتشققت نواحيه ، فكان من رأيهن جميعا ان المرأة لا تقع فى الذكاء والعقل دون الرجل ، وزادت المدرسة أنه يجب أن يباح للمرأة من الحريات والاعمال ما يتاح للرجل ، وكنت أعتقد ان هذا لا يخرج عن كونه نقاشا ومكابرة ! وراعنى أن تخرج المدرسة (علبة سجايرها) أمام طالباتها وتقدم لى سيجارا ! ! أفى هذه الوجوه وحدها تطلبين المساواة ؟ أنا مسلم يا أختاه أن رسالة المرأة فى الحياة لا تقل أهمية عن رسالة الرجل ، ولكن كل ميسر لما خلق له ، ولو شاء ربك لجعل الناس جنسا واحدا رجالا أو نساء ، ولكنه خلق المرأة لتكون كالظل يسكن إليها المجهود ، فيجد فى أحضانها مقيلا ينسى فيه لفحات الشقاء وسفعات الحياة . . . لتكون كالشاطىء يعود اليه الملاح بعد اضطراب الموج وثورة الزوابع . لم يخلقها لتحترف التنس والجولف . خلقها لتزين العش لا لتوزع وقتها بين الحدائق والزيارات والسينما . خلقها لتشارك الرجل فى السراء والضراء لا لترهقه من أمره عسرا . خلقها لتعد بنفسها أبناءها ، لا لتتركهم لعناية الخدم والمربيات . . . تلك يا أختاه رسالة المرأة : أما ما عدا ذلك فباطل ؟

محمود البكرى القلوصناوى

فلســـفة سبنسر

للاستاذ زكى نجيب محمود

تمهيد

تستطيع أن تصور لنفسك الحركة الفكرية فى أوربا فى القرن الماضى بند ولا يتذبذب من طرف إلى طرف ؛ ويقفز من النقيض إلى النقيض ،وليس فى ذلك نبو أو شـــذوذ ؛ إنما هى الطبيعة الانسانية ؛ أو ان شئت فقل هى طبائع الاشياء جميعا ، اذا ما تطرف بها الموضع ، لا تستطيع أن تتوسط فى مقر معتدل مطمئن قبل أن تجذبها الدفعة الى أقصى الطرف الآخر . وهكذا خضعت الفلسفة فى القرن التاسع عشر لما تخضع له الأشياء جميعا ؛ فاهتزت بها الأرجوحة بين طرفى النقيض. ففى أوائل القرن المـــاضى طوح بها هجل فى بيداء الغيبيات والتجريد فلا تكاد تقرأ شيئا منه ، حتى تضل فى عالم وراء هذا العالم المحس الملموس ؛ فليست الطبيعة عنده شيئا ، وما وراء الطبيعة هو كل شىء . ولكن لم يكد ينسلخ من القرن نصفه الأول ويضرب الناس فى أحشاء النصف الثانى حتى نفر العقـــل الانسانى من ذلك الفكر المجرد ، وسئم تلك الميتافيزيقا المعقدة الموحشة ، وأعياه هذا العبء الثقيل . فألقاه عن كاهله غير آسف ؛ وقفز الفكر الى النقيض الآخر . فنهضت فلسفة جديدة تنكر غيبيات هجل وأشياع مذهبه ؛ وتنتقل بالأنسان الى ضرب آخر من ضروب الفكر ؛ بعد أن كانت تتناول بالدرس حياة لا يربطنا وإياها الا الخيال الشارد ؛ أخذت تعالج مظاهر هذا العالم الواقع المحسوس. نعم انتقلت الفلسفة الى المعرفة اليقينية الأيجابية . وكان حامل اللواء فى هذه الحركة أوجست كنت فى فرنسا. ثم دارون وسبنسر فى انجلترا

وكان طبيعيا أن تنشأ هذه الفلسفة الايجابية فى فرنسا ، لانها موطن اللا أدرية والشك ، وهما طريق لابد أن تؤدى يوما الى الايمان واليقين مهما امتد بها الزمان ، ثم كتب لهذه الحركة الايجابية أن تتصل بتيار الفكر فى انجلترا الذى استمد روحه من الصناعة التى تدوى أرجاؤها فى كل ربع من ربوعها ، والتى تقوم على العلوم أولا وآخراً ؛ فليس عجيبا أن يصوب الفكر الانجليزى ناظريه نحو الحقائق الجزئية التى هى المعين الذى تستنبط منه العلوم بأسرها وأن يضرب بكل ماوراء الطبيعة عرض الحيط . . وقد كان بيكون أول من انتحى بقومه ذلك النحو من التفكير ، ثم تأثر خطوه من جاء بعده من فلاسفة الانجليز : هوبز ولوك وهيوم

عنى الانجليز إذن بدراسة ما حولهم من أحياء وأشياء . حيث آمنوا ايمانا قاطعا انها هى الحقائق التى لا حقائق بعدها ، فنتج عن هذه الدراسة علوم الطبيعة والكيمياء وسائر العلوم جميعا ؛ بما فى ذلك علم الحياة الذى كانت نظرية التطور ثمرة من قطوفه . وقد فصلها دارون فى كتابه أصل الانواع تفصيلا ضافيا ، فكان لها دوى ارتجت له اركان الجامعات ومجامع العلم فى أنحاء العالم ، ثم جاء على الأثر فيلسوفنا سبنسر حيث استوى على ذروة تلك الموجة الفكرية فتناول مبدأ التطور وأخذ يطبقه على كل ناحية من نواحى التفكير . وهانحن اولاء نورد لك خلاصة موجزة لأهم ماجاء فى كتبه من آراء .

١ – الحقيقة المغلقة ، أوما لايمكن معرفته

يقدم سبنسر بين يدى كتابه المبادىء الاولى ، قضية لا يرتاب فى صدقها ، وهى ان كل دراسة تقصد الى البحث فى حقيقة الكون واستقصاء علته ؛ لابد ان تنتهى الى مرحلة يقف حيالها العقل عاجزاً لايستطيع ان يدرك عندها من الحق شيئا ، سواء سلك الى ذلك سبيل الدين أو العلم أو ماشئت من سبل

ابدأ بالدين وانظر كيف يعلل لك الكون : هذا ملحد يحاول ان يقنعك بأن العالم انما وجد بذاته ، لم يتفرع عن علة وليس له بدء ولا ختام ؛ فلا يسعك أمام قوله هذا الا أن تمط شفتيك جحودا وانكارا ، لأن العقل لايسيغ معلولا بغير علة ، وموجودا سار فى الحياة شوطا لا بداية له ... ثم استمع الى هذا الناسك المتدين ، هاهو ذا يقص عليك علة الكون وكيف كانت نشأته ، فخالق الكون عنده انما هو الله العلى العظيم ، ولكنك صلب عنيد ، سترى أنه لم يفسر من المشكلة شيئا ، ولم يزد على صاحبه سوى أن أرجعها خطوة الى الوراء ، وكأنى أسمعك تسائله فى سذاجة الطفل ومن أوجد الله ؟ . وإذن فالدين بجانبيه – الايمان والالحاد – لم يستطع أن يقدم لك تعليلا واضحا معقولا

خذ العلوم ، فلعلك واجد عندها ما يرد حيرتك . . . سائل العلم :

ما هذه المادة التى أراها وألمسها والتى تغص بها جوانب الكون؟ انظر! هاهو ذا يحلل لك المادة الى ذرات ثم الى ذريرات أدق ثم الى أخريات أكثر منها دقة، ثم ماذا؟ هنا يقف العلم بين اثنتين، فهو اما ان يعترف بأن المادة قابلة للتجزئة الى مالا نهاية له من الاجزاء، وليس من اليسير أن تسيغ هذا القول، واما أن يقرر بأن ثمت حدا يقف عنده التقسيم، وهو مايستحيل عليك أن تقتنع به... ثم سائل العلم عن القوة ماهى؟ فلست أحسبه يستطيع جوابا.. واذن فالعلم كذلك عاجز عن شرح حقائق الكون.

وأى غرابة فيما يصادف الذكاء البشرى من ابهام لا يقوى على معرفته؟ انه أعد لكى يفهم ظواهر الأشياء، ولا يعدوها الى ما خفى وراء أستارها، ولكننا فى الوقت نفسه لانستطيع أن ننكر هذا الشعور الذى تضطرب به نفوسنا من ان وراء هذا الغشاء الظاهر حقيقة كامنة، حسب العقل أن يدرك وجودها، اما اذا هم نحوها بالتحليل والتعليل خر صريعا عاجزا

وعلى هذا الاساس من وجهة النظر، يصبح التوفيق بين العلم والدين هينا ميسوراً، فليقصر العلم دائرة بحثه على ظواهر الأشياء دون أن يتورط فى البحث عن حقائقها المستورة.. له أن يتناول المادة تحليلا وتركيبا دون أن يبحث فى ماهية المادة، وله أن يستنبط قوانين الحرارة والضوء والصوت وما اليها من مظاهر القوة دون أن يعلم ماهية القوة، لان هذه وتلك فوق مقدوره، وكل محاولة له فى هذا السبيل ضرب من العبث.. أما الدين فخير له أن يترك هذا العقل المعاند الملحاح، الذى لا يطمئن لغير الحجة المنطقية، خير له أن يترك هذا العقل يسبح فى غروره وأن يناشد العقيدة من الانسان، لان من طبعها ألا تلزم بالحجة العقلية.. قل للعلم أن يكف عن اثبات الله أو انكاره فليس اللاهوت ميدانه الذى يصول فيه ويجول، وقل للدين أن يكف عن مناشدة العقل لانه لايستقيم مع نهجه فى التفكير، تر الدين والعلم أخوين متصالحين لكل منهما حلبة ومجال

ترى من هذا أن سبنسر يعتقد اعتقاداً لا يلين للشك بأن وراء ظواهر الاشياء حقيقة مغلقة لا يستطيع العقل البشرى أن يعلم من أمرها شيئا، ولكنى أريد أن أتقدم هنا الى سبنسر فى تحفظ وتواضع باعتراض منطقى، فالقول بان مسألة ما يستحيل على العقل أن يعلم عنها شيئا، قول يهدم نفسه بنفسه لانه يتضمن اعترافا بأن العقل قد ألم بها فعلا بعض الالمام فقد أدرك وجودها على أقل تقدير، ثم سار فى بحثها شوطا أيقن بعده أنها فوق مقدوره المستطاع، اذ لو كانت مغلقة دون العقل اغلاقا تاما، لما علم بوجودها فضلا عن علمه بقدرته على ادراكها أو عدم قدرته

٢ — التطور

ولكن مهما يكن من أمرها هى ذى الفلسفة — أى العقل — قد ألقت سلاحها معترفة بقصورها وعجزها عن ادراك تلك الحقيقة الكامنة وراء ظواهر الأشياء، وبادرت فألقت بهذا العبء الذى أثقل كاهلها طوال العصور الى الدين يبحثها ما شاءت له طرائقه؛ ولتقنع الفلسفة بالبحث فيما تستطيع له فهما وادراكا؛ ولكن مهمتها منذ اليوم تلخيص النتائج العلمية وجمعها فى وحدة شاملة. فقد بدأت المعرفة بأشتات متناثرة من المعلومات؛ ثم امتدت اليها يد العلم بشىء من الربط حتى تركزت فى طائفة من العلوم. أفلا يجدر بالفلسفة أن تؤاخى بين أفراد هذه الجماعة من العلوم المختلفة. فتسلك المعارف الانسانية جميعا فى وحدة متماسكة؟ حقيق بها الا تدع سبيلا للبحث حتى تهتدى الى قانون عام ينتظم التجارب الانسانية جميعا، كائنا ما كان لونها... ترى هل توفق الى الهداية فى هذه الطريق الملتوية الوعرة: فتنتهى الى قانون واحد يفسر هذا الشتيت المتضارب مما يقع تحت حسنا؟ ويضم تحت لوائه المفرد كل هذه البنود المتباينة مما تضم صدورنا من تجربة وعلم؟

يجيب سبنسر أن نعم. ألا يتلخص تاريخ الكائنات جميعا فى ظهورها من بدء مجهول ثم اختفائها فى نهاية مجهولة؟ اذن فلابد أن يكون ذلك القانون المنشود شاملا للتكوين والانحلال... الا وهو التطور. وهنا يضع سبنسر قانونا للتطور شرحه فى مجلدات عشرة واستغرق من زمنه عشرين سنة كاملة؛ هاك نصه: « التطور هو تجمع لاجزاء المادة، يلازمه تشتيت للقوة والحركة، وفى خلال ذلك تنتقل المادة من حالة التجانس المطلق الى حالة التباين المحدود ».

ولشرح هذه العبارة نقول:

لقد تكونت الجبال الشامخة من ذرات الحصى، وامتلأت المحيطات الفسيحة بقطرات ضئيلة من الماء، واجتمعت عناصر دقيقة من الأرض فكونت الادواح العالية، ووجبات متعاقبة من الطعام تشيد أجسام الرجال، وتآلفت طائفة من المشاعر والذكر فألفت فكراً ومعرفة، ثم تآخت جزئيات المعرفة فانتجت

علما وفلسفة ؛ لقد تطورت الاسرة الى القبيلة ، ثم الى المدينة والجنس ؛ ثم الى الدولة ، ثم الى تحالف بين دول الأرض قاطبة . . . كل هذه أمثلة لأجزاء المادة المتناثرة كيف تأتلف ويجتمع بعضها الى بعض . ومن جهة أخرى يسبب هذا التآلف حدا من حركة الاجزاء وشلا لقوتها ، فقوة الدولة مثلا تحد من حرية الافراد ، والحبة من الهباء حرة الحركة وهى منفصلة ، مشلولة مقيدة اذا ما اجتمعت مع اخواتها فى صخرة أو جبل . . ولكن تجمع الاجزاء يستتبع نتيجة أخرى هى التنوع والتنافر فى العمل الذى يؤديه كل منها ؛ فقد كان السديم الأول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضها بعضا ولكنه سرعان ما تنوعت فى غازات وسوائل وأجسام صلبة . . أنظر فهذه قطعة من الاديم قد افترشت سندسا أخضر ، وتلك الجبال قد اكتست ثلوجا ناصعة البياض ، وذلك البحر قد تسربل بلباسه الأزرق . . . أنعم النظر فى هذه الخلية الواحدة المتجانسة وما سينشأ عنها من مختلف الاعضاء : هذا للغذاء وذاك للافراز وثالث للحركة ورابع للادراك . . . اللغة الواحدة لا تكاد تسرى فى بطاح الأرض حتى تتنوع فى ألسنة ولهجات لا يفهم بعضها عن بعض . . العلم الواحد يتفرع عنه عشرات من العلوم ، المنظر أو الحادثة توحى صوراً من الفن والأدب ليس الى حصرها من سبيل . . . كل هذه أمثلة على التنوع والتنافر اللذين يعقبان التشابه والتجانس

وهكذا أسطورة الحياة : تجمع وتفريق ، تآلف وتنافر ، تأتلف الاجزاء وتجتمع فى وحدة لا تزال تطرد فى النمو حتى يدركها تنافر الأجزاء ، ثم يشتد هذا التنافر ويشتد حتى تتلاشى وتنحل . . .

سنة الوجود هذا الانحلال والتكوين ، ولكنه بين جذبة المد ودفعة الجزر يلتمس التوازن لكى ينتهى اليه ... فكل حركة تعانى من المقاومة ما يؤدى بها البطء ثم الى السكون عاجلا أو آجلا . . . الكواكب السيارة يضيق فلكها شيئا فشيئا .. حرارة الشمس وضوؤها يقلان كلما تقادم عليها الدهر . الارض تلكأ فى سرعتها عهدا بعد عهد الدماء فى عروقنا سيصيبها البرودة والبطء ... وهكذا سيسعى الوجود نحو الانحلال ، او سيسعى الانحلال الى الوجود خطوة خطوة ، وهى خاتمة محتمة للتطور : سينحل المجتمع وتتفرق الشعوب ، وتذوب المدن . وبمثل هذا تتم دورة التطور والانحلال ولكنها ستبدأ السير ثانية وثالثة الى ما لا نهاية له من المرات ، وكل تكوين جديد لابد ان ينتهى بالفناء والموت

وهكذا كان كتاب « المبادىء الأولى » مأساة مروعة تروى لنا قصة العالم : صعود وهبوط ، تكوين وانحلال ، حياة وموت ، تطرأ متتابعة على الأحياء والأشياء . . . أفيكون عجيبا أن يقابل هذا المؤلف عند اخراجه واذاعته فى الناس ثورة عنيفة لأنه لم يدع مجالا للعقيدة والأمل ؟ !

رأيت فيما سبق أن التطور عند سبنسر هو القانون الذى تنشده الفلسفة لكى تضم بين دفتيه علوم الانسان بأسرها . فمهما قلبت النظر فى مظاهر الكون وجدتها تسير فى سبيل التطور أى من البساطة الى التعقيد ومن التجانس الى التباين . ويجدر بنا أن نورد فى هذا المقام نقدا للفيلسوف المعاصر برجسن على هذا القانون ؛ فهو يقول ان سبنسر بقانونه هذا انما يقدم لنا صورة الطبيعة كما هى ، وليست هذه مهمة الفيلسوف ، بل يطلب اليه أن يفسر هذه الصورة التى اكتفى هو بسردها سردا .

ويختم سبنسر كتابه هذا برأيه فى الحياة بأنها تافهة حقيرة لا تستحق البقاء ، فاصاب بهذا الرأى ما أصاب الفلاسفة جميعا من محنة النظر البعيد ، إذ ألقى ببصره الى الأفق النائى ، فمرت صور الحياة الخلابة تحت أنفه دون أن يراها ! !

ولنقف من الأمر عند هذا الحد على أن نعود فى مقال تال الى تتمة الموضوع ؟

زكى نجيب محمود

من طرائف الشعر

أغنية ريفية

للشاعر الوجدانى على محمود طه المهندس

إذا داعبَ الماءَ ظلُّ الشجرْ　　وغازلت السحْبُ ضوءَ القمرْ
وردَّدت الطيرُ أنفاسَها　　خوافقَ بين الندى والزَّهَرْ
وناحت مطوقةٌ بالهوى　　تناجى الهديلَ وتشكو القدرْ
ومرَّ على النهر ثغرُ النسيم　　يقبِّلُ كلَّ شراعٍ عبَرْ
وأطلعت الارضُ من ليلها　　مفاتنَ مختلفات الصورْ
هنالك صفصافةٌ فى الدجى　　كأنَّ الظلامَ بها ما شعَرْ!
أخذتُ مكانىَ فى ظلها　　شريدَ الفؤاد كئيبَ النظرْ
أمرُّ بعينى خلال السماء　　وأطرق مستغرقاً فى الفكرْ
أطالعُ وجهكَ تحت النخيل　　وأسمعُ صوتك عند النَّهَرْ
إلى أنْ يملَّ الدجى وحشتى　　وتشكو الكآبةُ منى الضجرْ
وتعجب من حيرتى الكائناتُ　　وتشفق منى نجومُ السَّحَرْ
فأمضى لأرجعَ مستشرفاً　　لقاءك فى الموعدِ المنتظرْ!!

الزورق الغريق

للشاعر الدمشقى أنور العطار

«... ولكن إذا رجع بك القدر دون ما قصد إلى أثر لحب منسى، فان هذه الحصاة تقفك ويؤلمك أنها صدمتك.

وتصبح حينذاك إن الحياة حلم، وتظل مكتوف اليدين كما لو انتبهت من إغفاءة، فتحزن وتضطرب، ذلك لان الأكذوبة المفرحة لم تدم إلا لحظة!»

«الفريد دوموسيه»

أنيرى ظلامَ الروح فالحبُّ زورقٌ
متى يعترضه طائفُ اليأسِ يغرقِ

يحوم على شطِّ النجاة مروَّعاً
فتحسبُه الأمواجُ قربانَ متَّقِ

علالةُ مغلوبٍ تعايا رجاؤه......
فلم يبقَ منه غيرُ أنةِ مشفقِ

وفاضت من المجذاف حسرةُ خائبٍ
حبيسِ التشكِّى خافتِ النوحِ مرهقِ

وعاصفةٍ هوجاء كالموتِ صولةً
رمتْ بشراعٍ خافقٍ متمزِّقِ

فطاحتْ أمانيه وأفضى به الردى
إلى حالكٍ جهمِ السرائرِ ضيِّقِ

قسوتِ على قلبى وشرَّدتِ حلْمَهُ
وخلَّفتِنى مثلَ الغريق المعلَّقِ

فلا اللجَّةُ الربداءُ تخطفُ روحَه
ولا هو من مرِّ العذابِ بمطلقِ

حنانيكِ ردِّى النفسَ من عالَم الأسى
إلى عالمٍ حلوِ الأعاليلِ مونقِ

فينتعشَ القلبُ الذى مضَّهُ الجوى
ويمرحَ فى كونٍ من الحبِّ مورقِ

أسيتُ له كمْ يقطعُ العمرَ موجَعاً
ويحيا بحبٍّ يائسٍ منكِ مقلقِ

متى تلتمعْ ذكراكِ فى ساحِ حلْمِهِ
يضجَّ كطفلٍ واهنِ الصبرِ مُخنقِ

يودُّ لو انَّ اللهَ ألقاهُ موجةً
بصدركِ إنْ تخفقْ به الوجدُ تخفقِ

خذى بيدى فالحبُّ لم يبقِ لى يداً
أردُّ بها كيدَ الحياة وأتقى

أضعتُ ملاذى فى هواكِ وليتنى
ظفرتُ بحبٍّ طافحٍ منكِ مغدقِ

كأنَّ الهوى قد بدَّل القلبَ طائراً
وعلَّمَهُ نوحَ الحمامِ المطوَّقِ
يُحلِّقُ فى موجِ السماءِ مغلغِلًا
ومَنْ يُضْنِهِ الحبُّ البريءُ يُحلِّقِ
هل الحبُّ إلا بعضُ أصبغةِ الصِّبا
متى ما تُوَشِّ القلبَ يخفُقْ ويَعشَقِ
يُعيدُ إلى خابي الحياةِ شعاعَها
فتَنْدَى بنورٍ ساطعٍ مُتألِّقِ

أفيضى علىَّ الحبُّ تلمعْ على المَدَى
خيالاتُ ماضٍ ضاحكِ الحلمِ مشرقِ
يَرِفُّ سَنَاهُ وهو نَدْيانُ بالرُّؤى
كموجةِ نورٍ فى غلالةِ زنبقِ
تعاودُنى ذكراكِ والقلبُ عاطشٌ
وإمَّا يُساوِرْهُ التذكُّرُ يَشرَقِ
إذا أغدرَ الوردُ الذى كان صافياً
فلا بُدَّ من كَرْعِ المريرِ المرَنَّقِ
أيا نهرَ النسيانِ غيِّبْ صحيفتى
وهرِّقْ بها فى الغيبِ كلَّ مُهرَّقِ
فما نورُ هذا الكونِ إلا عمايةٌ
إذا كان حظُّ الحبِّ غيرَ موفَّقِ

أمانِيَّ كثْرٌ والهوى يَستثيرُها
ولكنَّها بنتُ الخيالِ المنمَّقِ
يزيِّنُ لى أفقَ الأعاليلِ حالياً
فأيْنانَ يبْذِ الحُلْمَ نضرًا أصدقِ
ويغرى فؤادى بالرؤى وهى ضلَّةٌ
وما كان حُلْمُ القلبِ بالمتحقِّقِ
أفقْتُ وقلبى لا يرومُ إفاقةً
ومَنْ تحتجبْ عنه الأمانىُّ يَزْهَقِ

فيالكَ من قلبٍ لحلْمِيَ طائحٍ
شتيتٍ كدمْعِ الفجرِ نهبٍ مفرَّقِ

سنمضى ويبقى الحبُّ لهفانَ باكيا
يموج كسر فى السموات مغلق
إذا طفحتْ هذى السماءُ محبّنا
فهل تحفظ النجوى إلى يوم نلتقى

وقفتُ عليكِ الشِّعرَ أسوانَ دامعا
بقيةَ ومضٍ من فؤادٍ مُحرَّقِ
فصونى نشيداً ضمَّ أحلامَ شاعرٍ
مُضاعٍ شرودِ اللبِّ ولهانَ شيِّقِ

آية الجزر

للاستاذ فخرى ابو السعود

جزيرةٌ قد أشاحتها يدُ القدَرِ
عن الشطوط فقامت آية الجزُرِ
قد استوتْ وسطَ أمواجٍ تلاطمها
نصْبَ الرياحِ ونصبِ البرد والمطر
إذا الشتاء أتاها لم يَرُمْ حوَلا
عنها وغشَّى فجاجَ الأرضِ بالكدَرِ
قريبُ ما بين أطراف النهار وما
يزهو برونق آصال ولا بُكَرِ
يأتيك فى كل يوم من تحوُّلِه
شأن جديد وأمر غير منتظر
يارُبَّ يوم شرودٍ جاء مزدهيا
بشمسه ونسيم لين عطر
تلاه آخر روَّاها وأترعها
بوابل مستمر الوكْفِ منهمر

فجاء صبح حديد البرد قارسه
يكوي الوجوه بوخز منه كالابر
فجاء من بعد صبح أبيض يقق
كاس بثلج كزغب الطير منتشر
يغشى المنازل والاشجار ناصعه
كسكر فوق حلوى العيد منتثر !
يكاد يزلق عنه غير منتبه
من لم يطأه بنعل الخائف الحذر
فجاء صبح يلف الارض في سدف
من الضباب كثيف اللون معتكر
يكاد يفتقد الانسان راحته
إذا تعرض بين الراح والبصر
يطوي معالمها في طي غيبه
فلم يدع ثم منظوراً ولم يذر
إذا أقام ثلاثا في جوانبها
نسيت كيف مسير الشمس والقمر
إذا تراءت شتاء وهي كالحة
شوهاء عاطلة من معجب الصور
دجناء مربدة الآفاق حائلة
جدباء ذاوية الازهار والشجر
عجبت كيف يزور الوحي واديها
وكيف ينطق فيها الشعر بالغرر
وكيف يونع حسن في كواعبها
يتهن في ريق منه وفي نضر
لكن شاعرها سارت نباهته
في الخافقين وجابت سالف العصر
وقومها في أقاصي الشرق قد رفعوا
والغرب راية رب السبق والظفر
سادوا بكل أديم راق منظره
وكل واد قشيب الوشي والحبر
وسخروا اليمّ واعرورو أواذيه
بقاهر حيث جاب اليمّ منتصر
الله يشهد ما جاموا بمعجزة
في العالمين ولا بدع من الخبر
لكنه الجد تنقاد الامور به
للطالبين ويدنو عازب الوطر

في ١٤ نيسان ١٩٣٣

« هدية الى صديقي الشاعر الملهم احمد رامي »

احبك في القنوط وفي التمني — كأني منك صرت وصرت مني
احبك فوق ما وسعت ضلوعي — وفوق مدى يدي وبلوغ ظني
هوى مترنح الاعطاف طلق — على سهل الشباب المطمئن

* * *

ابوح اذن فكل هبوب ريح — حديث عنك في الدنيا وعني
سينشرنا الصباح على الروابي — على الوادي على الشجر المغني
ابوح اذن فهل تدري الدوالي — بانك انت اقداحي ودني؟
اتمم باسم ثغرك فوق كأسي — وارشفها كأنك او كأني !!

* * *

نعيم حبنا فانظر بعيني — وعرس للمنى فاسمع بأذني
كأن الصحو يلمع في ظنوني — ويخفق في ضلوعي الف غصن
على الوتر الحنون خلعت شوقي — وماج هواي في آه المغني
ففي النغم العميق اليك أمشي — وأسلك جانب الوتر المرن

بيروت — أمين نخله

مجموعة السنة الاولى

دراسات أدبية

بلاسكو ايبانيز

نقل رفاته من منفاه الى مسقط رأسه

بقلم محمد أمين حسونه

رأت الجمهورية الاسبانية وقد تحققت اطماع رجالها السياسية واستقرت حركتها الانقلابية الدستورية ، أن تمجد الرجل الذى تقدم الصفوف ونفخ فى بوق الثورة ، فذهب ضحية مبادئه : بعيداً



(بلاسكو ايبانيز)

عن البلاد التى لبث نصف قرن ونيفا يخلص لها الحب ، حتى كانت « اسبانيا » آخر كلمة لفظتها شفتاه ،وهو يعانى آلام الموت فى منفاه . فلم تجد أليق من أن تعيد رفاته الى وطنه ليضمه ثرى « بلنسية » وهى البلدة التى انبثق من نواحيها فجر هذه العبقرية الفذة التى تحدث عنها .

فمن أسابيع خلت ، احتفلت الحكومة الاسبانية رسميا بنقل رفات الكاتب الشهير « بلاسكو ايبانيز » من مدينة «منتون(١)» بفرنسا ، على ظهر بارجة حربية حملته الى مسقط رأسه ، وقد كان الاحتفال بوصول رفاته يوما مشهوداً فى تاريخ اسبانيا ، ساهم الشعب فيه باظهار عواطفه السامية ، نحو الرجل الذى لبث يجاهد ويناضل ويذكى فى وطنه من حرارته وفتوته ، لتظل فوهة البركان أبداً مشتعلة وهاجة !

عاش ايبانيز طيلة حياته متمرداً ثائراً ، لا يهدأ ولا يستقر ولا يعرف لبدنه عليه حقا ، كأنه موكل بتسخير قوى الطبيعة لخدمته حتى قيل : إنه سحابة من نار .

طالع فى فجر شبابه كل ما كتب عن الثورة الفرنسية ،وكان يشبهها «بالهرة» عندما تجوع لا تلبث أن تأكل صغارها ، ولكن الثورة لم تأكل صغارها ، بل أكلت زعماءها : دانتون ،ومارات وروبسبير . وكان مفتونا بروسو وفولتير ، يعجب بهما ويقول : هما اللذان مزقت أفكارهما وثائق العبودية ،وبفضل مبادئهما اشتدت روح الثورة ، غذاها الأول من ناحية القلب ،والثانى من ناحية العقل .

ولد بلاسكو فيسنت ايبانيز فى ٢٩ يناير سنة ١٨٦٧ بمدينة بلنسية ،وهى حاضرة المقاطعة المسماة باسمها ، وقد اشتهرت بكتدرائيتها الأثرية ومنها خرجت طائفة من اعظم فنانى اسبانيا فى القرن الرابع عشر ، وقبل ان يبلغ العشرين من عمره ، اصدر صحيفة اسبوعية كانت تبث المبادىء السياسية المتطرفة فى ذلك الوقت ، كالجمهورية ، والدعوة الى الاشتراكية ونحو ذلك ، وحدث ان قدم ايبانيز الى برشلونة ـ مبد الثورة ـ ليخطب فى حفل سياسى ، فتناول فى خطابه الجمهورية والملكية ، واخذ يفاضل بينهما ، فقبض عليه رجال البوليس ، ولكنه قاومهم واعتدى عليهم فحكم عليه بالسجن ، غير انه خرج من السجن وقد ازداد ايمانا بمبادئه وتحفزا الى تحقيقها ، فكون (الحزب الجمهورى الحر) وتقدم فى ضوء هذه المبادىء الى الانتخابات ، ففاز بالاجماع وانتخب نائبا فى البرلمان الاسبانى عن مقاطعة (بلنسية) ولم يمنعه اشتغاله بالسياسة من ان يتفرغ للادب والكتابة ، وهو بلاشك اعظم كاتب ظهر فى اسبانيا الى اليوم ، خلف وراءه ثروة ادبية زاخرة ، تبلغ الثلاثين كتابا ، كل صفحة منها مشرقة اشراق النجم !

(١) تقع فى جنوب فرنسا على شاطىء البحر المتوسط وقد اتخذها ايبانيز مقاما له بعد صدور أمر الدكتاتور السابق بريمودى ريفيرا بنفيه وتوفى بها فى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٨ أى فى مثل يوم ولادته .

لم تقتصر ثورته على الاوضاع السياسية التى كانت تشكو منها بلاده فحسب ، بل عرف أنه كان هداما فى دائرة الادب ايضا ، ليبنى على انقاض القديم وجموده ، أدبا جديدا حيا له طابعه ومميزاته الخاصة ، والحقيقة ان العصر الذى بدأ فيه ايبانيز حياته الادبية ، كان فى حاجة الى من يقوض اركانه ، وكان يقول : نحن فى حاجة الى الثورة الادبية التى تدفعنا الى كشف مواطن الجمال وتؤدى بنا الى النور ».

ولكن هل أثرت تعاليم ايبانيز حقا فاخرجت الادب الاسبانى من الظلمة الى النور ؟ إن من يتذوق ذلك الفن العميق الرائع الذى خلده ايبانيز فى قصصه الممتعة ، امثال : فى ظل الكنيسة ، وامرأة « جويا » العارية ، وفرسان الرؤيا الاربعة ، وفاجعة البحيرة ، وبحرنا ، وزهرة مايو ، واعداء المرأة ، ورمل ودم ، والاراضى المجهولة الخ ؛ ذلك الفن الذى كان يعتمد فى ابرازه على جمال التنسيق ودقة الوصف ، وارهاف العاطفة ويكسوه باشعاع الروح الدرامى الغامر ، حتى يجتهد فى أن يجعل من أدبه مرآة صافية لفنه الجميل ، تنعكس عليها مختلف الصور والأحاسيس ، فتشعر وأنت تطالع قصة له أن شعورك ووجدانك مرتبطان تماما بحوادثها ، وانها تمثل بلاده ونفسيتها أبلغ تمثيل ، وقد لا يصرفه كلفه باللوحة ومحاولة اظهار مكامن الفتنة فى الصورة ، عن العناية بالاطار نفسه ، فتجده يقتنص المعانى ويصقل الألفاظ كما يصقل النحات الأحجار قبل البناء ، وولعه بالطبيعة يدفعه الى أن يجارى (زولا) فيرسم أبطاله وهم يعيشون بين مهادها بعيدين عن تلك العاطفة الزائفة التى تولدها الحياة المصطنعة فى المدن ، كما أن إعجابه بالبحر المتوسط — مهد جميع البطولات والأديان — يوحى اليه أن يمجد من أعمال رجاله « عوليس » ، و « بركليس » ، و « هنيبال » ، والاشادة بشجاعة فرسانه ، و لك فى قصته الخالدة Mare Nostrum

لفت ايبانيز انظار العالم الاوربى الى فنه خاصة والى الأدب الاسبانى عامة ، فترجمت مؤلفاته الى اللغات الحية وأولع الفرنسيون بقصصه فقلدوه وسام « جوقة الشرف » ، وهتف له شيوخ النقدة : فوصفه كورتيوس النقادة الالمانى « بأن فنه عبارة عن مأساة الخير والشر » ، وقال أحد القصصيين الامريكيين « لقد بدأ ايبانيز ينافسنا فى صناعتنا ، والاوفق أن نحطم أقلامنا ونبحث عن صناعة غير الأدب لنعيش » !

وقد غرست مبادىء فولتير فى نفسه كراهية رجال الدين والسخرية من أعمالهم ، ففى قصته المسماة Dans l'ombre de la Cathedrale « فى ظل الكتدرائية » ، يصور لنا مفكرا اشتراكيا هو « جبريل لونا » ، يطالب بالاصلاح الاجتماعى فيكون نصيبه الاضطهاد من الكنيسة ، فيثور على رجالها ويحتج ويغادر بلده بعد أن يؤمن بأن لا كرامة لنبى فى وطنه ! ويطوف باوروبا ليبشر بمبادئه ، غيران السلطات تطارده أينما حل ، فيعود أخيرا الى بلده مقصوص الجناح كسيرا ، ويضطر الى أن يعيش متخفيا مع أخيه الذى يعمل خادما « بالكتدرائية » ، أى يعود فيأكل من خبز الكنيسة التى يضمر لها البغض ، حتى اذا ما اشتد ساعده أخذ يكفر بنعمتها ويؤلب الجوع عليها ، يتخذ من خدامها تلاميذ له ، ويبث مبادئه بينهم ، فلا تلبث هذه المبادىء أن تسرى كالسم فى أبدانهم ، يحملهم على سرقة أموالها وتحفها ، ولكنهم فى خلال السرقة يقتلونه ويمثلون به أشنع تمثيل !

ولعل فن ايبانيز يبدو قويا واضحا ، وافكاره مستوية ناضجة فى القسم السادس من القصة ، عندما يحمى وطيس المناقشة بين جبريل وأحد اتباعه ، فيبسط امامه حالة اسبانيا وجمود الكنيسة ، ويتعرض للفترة الذهبية من تاريخها ، فيذكر ان الاسبانيين أعظم من اليونان والبيزانطيين ، فهم الذين أهدوا البشرية « الدنيا الجديدة » ، وهم ارستقراطية الشعوب وسادة البحار ، قادوا الرواد فى سياحاتهم حول الكرة وجابوا الآفاق وبعثوا المدنية من مرقدها ، ولو أنصف التاريخ لجعل بلادهم وطن العالم الاول !

اما فى قصته « رمل ودم » فهو المتهكم اللاذع ، صاحب الاسلوب المتدفق الفياض ، يرسم لنا فى لباقة وسحر ، حياة مصارعى الثيران فلم يحاول ان يقلل من خطر هذه المصارعة الوحشية ، ولكنه هاجم الارستقراطية التى تبنى مجدها وتسليتها على شقاء هؤلاء المصارعين الذين يطلقون عليهم اسم « التريادور » . فبطل هذه القصة « جوان جالا رادو » ، فتى يخرج من صفوف الشعب ليشق طريقه الى المجد بقوة ساعديه فيتمرن على مصارعة الثيران ولا يلبث ان يبذ أقرانه ويتألق نجمه ، وتمكنه شهرته وحياته الجديدة من ان يستمتع بكل ما كان يصبو اليه فى صغره ، يحارب الفقر والجوع وينعم بالزواج ووفرة المال ، ولكن القوة والشهرة لا تدومان ، فهو يخشى ان يفقدهما عند ما يقف فى ساحة المصارعة حاملا حياته بين ذراعيه ، ويرسم أيبانيز الى جانبه صورة أخرى يحملنا على التهكم والازدراء بها : صورة « كورنتيس » وجدانية الحس متقلبة الاهواء تدعى « دونا سول » ، بعد ان تنتزع « جالارادوا » من احضان زوجته ، تحبه ، وتعبده كبطل وتحاول ان تقرن نجمها بمجده

وشهرته ، ولكن عندما تحس بالفارق بينها كأمرأة ارستقراطية تنحدر أصلاب الاشراف ، وبينه كرجل من عامة الشعب تحتقره وتتخلى عنه ، فيهوى نجمه ويفقد توازنه وهو فى ساحة المصارعة فينشب الثور قرنيه فى صدره ولا يلبث ان يقع مضرجا على الارض حيث تسيل دماؤه وتمتزج بالرمال ، يحملونه الى الخارج جثة هامدة ولكن الجمهور لا يلبث بعد قليل أن يصفق ويصيح طالبا مشهدا جديدا ليشبع نهمته ويرضى غريزته التى طبعت على ذلك ، منذ أن شهدت الدماء الاولى وهى تجرى على الارض : دماء هابيل .

* * *

وايبانيز قوى الايمان بروح الحضارة العربية التى سادت اسبانيا وظلت ترفرف فوق ربوعها زهاء ثمانية قرون ؛ تلك الروح المتوقدة التى نفذت الى الغرب فعلمته كيف يخلق من الحب أدباً عاليا ومن المرأة صنما معبودا ، ما برحت تمد المعجم الاسبانى بربع مفرداته وان تشع أنوار خيالها فتلهب قرائح كتابها وتسعر بحرارتها دماءهم فتدفعهم الى كتابة «دون كيشوت» و «كونده لوكانور» ، وغيرهما مما نرى آثار الفروسية العربية كامنة بين سطورها ، بل إن أثر هذا الروح ليبدو واضحا تماما فى مؤلفات وأشعار سلفادور ، رويدا ، والفريدو بلانكو ، وبيرس فالنتى وغيرهم ممن نراهم متأثرين بالخيال العربى الباهر

لقد صهر بلاسكو ايبانيز بنار عاطفته المشبوبة تخيلاته عن حضارة أجداده العرب ؛ فاودعها فى بعض قصصه ودافع عنها فى حماسة ويقين ، فهو وإن كان يكتب بلغة اسبانية ، الا أنه كان يفكر قبل كل شىء بروح عربى ، وقد خلف وراءه أنصارا يحاولون اليوم جهدهم تحقيق ما كان يصبو اليه من اعادة الحضارة العربية الى «الفردوس الاسلامى المفقود» ، كى تنتعش النهضة الحاضرة من تراثها الخالد ، واعادة التعليم باللغة العربية - مفتاح الثقافة الاسلامية فى اسبانيا - ونشرها بين الجامعة ودراسة آدابها العالية ؛ وسوف يكون شأنهم بالنسبة لها فى اوربا شأن الموارنة عندما خدموها فى الشرق خلال العصور الغابرة

ينشر ايبانيز ظلال افكاره هذه على صفحات روايته (فى ظل الكنيسة) فتراه يمجد من شأن هذا الروح العربى ويصف شعوره على لسان احد ابطال قصصه فيقول :

« ان تاريخ اسبانيا الباهر لم يأت اليها من الشمال ولا من الكنيسة ، بل من الجنوب ومن العرب ، هؤلاء الرجال سمر الوجوه الذين وصلوا الى شواطئنا فى القرن الثامن من شمال افريقيا بعد ان سيطروا فى انتصاراتهم على أرقى الشعوب ، حملوا الينا الحضارة والتمدن ، حضارة اجيال امتزجت ببعض ، قوامها فلسفة الهند وثقافة الفرس وآداب اليونان وفن البيزانطيين وأشياء اخرى من الشرق ومن الصين .

« احتضنت اسبانيا العرب ، ومكنتهم فى مدى عامين من ان يستولوا على حضارة سبعة اجيال ، رحب الشعب بهم لانهم فكوا وثاقه من استبداد ملوكه السابقين ، وكان استعمارهم استعمار الحضارة والنور والتسامح الدينى لا استعمار الوحشية والسلاح !

« وعندما استوطن العرب اسبانيا ، جعلوها . . كالولايات المتحدة الامريكية ، فى العصر الحاضر ، تعيش فيها جميع الأديان فى حرية ومساواة ، من غير تحيز ولا تعصب ، وفى الوقت الذى كانت شعوب الشمال تعيش فى ظلمات الجهالة وتتطاحن فى الحروب الدينية وتختلط بالاقوام البربرية ، كان العرب والاسبان واليهود ، يعيشون كتلة واحدة فى وئام ، يعملون فى سبيل اسعاد اسبانيا ورفاهية شعبها ، فتأسست دور العلم والجامعات وازدهرت الفنون وارتقت العلوم ونشطت الموارد الاقتصادية وبدأت اسبانيا تستيقظ لتشهد أنوار فجر جديد !

« وماذا عمل ملوك الكثلكة الذين أتوا إلينا من الشمال بعد ذلك ؟ نشروا الارهاب ومحاكم التفتيش ، أجلوا العرب واليهود ، طردوا العبقرية والحضارة ، واحلوا مكانهما : الدين والتعصب ، أطفأوا مصابيح العلم التى كانت تضاء من المساجد الاسلامية والبيع اليهودية ، ليضعوا مكانهما قناديل الجهل والجمود وخرافات رجال الكنيسة ، وعندئذ بدأت اسبانيا تتلاشى من العالم وتموت » .

يتشعب بنا الحديث لو شئنا أن نتحدث عن ايبانيز لنوفيه حقه ، وخير لنا أن نرجىء هذا الى فرصة يكون فيها المجال أكثر اتساعا ، وانما نختم هذه الكلمة بأن نقول ، إنه لما شبت نار الثورة الأسبانية الأخيرة التى انتهت باعلان الجمهورية ، كان ايبانيز فى مقدمة من يثيرون الخواطر ضد دكتاتورية الجنرال بريمودى رفيرا ، فاشتدت الخصومة بينهما ، وكان ايبانيز عزوفا عن الضيم فاتهم الملكية فى وطنيتها ، وكان هذا هو السبب فى ابعاده عن اسبانيا ونفيه ؟

محمد امين حسونه

بين الشك والايمان :

« شـــيللر »

للاستاذ خليل هنداوى

حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبي ، وفى الغم الذي غشى نفسى ، تعلم - يا الهى - بأنني قد تحريت النور . . .
اراني - دائما - أكثر هدوءا . . . !

« شيللر »

بين كل شعراء الادب الالمانى تجد « شيللر » هو اشقى من طغى عليهم الشك . وبرح بهم التشاؤم المعذب .

درج « شيللر » من مهده ، يغمره حنان أم هى رمز التقوى ومثال العطف . وأب دعاءه حين احتضنه بذراعيه - وربى ! امنح طفلى هدى العقل ، واهده السبيل الذى أخطه له ، وهكذا كانت مظاهر طفولته محاطة بالايمان العميق . وقضى الشاعر نشأته الأولى مولعا بالكتب . وهائما فى الطبيعة يشبع ما يثور فى نفسه من الاهواء الشعرية .

دخل المدرسة وأخذ العلم يطغى على شاعريته وايمانه ، ولكن « شيللر » كره العلم والعلماء ، وكان يجد ألذ ساعاته ساعة ينفرد بنفسه ويتلو توراة (لوثر) او (المسباد) ولكن روح الشك كانت تتسلل الى نفسه من حيث لايشعر . وفجأة تيقظت هذه الروح فيه فغدا صاحب شك وقلق - وظل - فى دوره الاول - بين عاملين يتساجلان الغلبة عليه ، فطورا يقهر القلب المتردد روحه الصافية . وتارة تغلب روحه الصافية قلبه المتردد : فينشد متألما

(حتى فى ظلمات الشك التى رانت على قلبى ، وفى الغم الذى غشى نفسى : علمت - يا الهى - بأننى قد تحريت النور .

انت اردت لى هذه الأيام السوداء ، التى تبرز فيها الاوهام المغرية من ناحية ، ويبرز الانكار - من ناحية اخرى - ضاحكا ضحكة الساخر

ها انذا - تجار فوق رأسى العاصفة ! والقصبة سترتجف اذا لم ترحمنى يا الهى !

احرس قلبى فى هذا الهدوء ، فى هذا الهدوء المقدس وأنا سائر الى الحقيقة . فالشمس لاتعكس اشعتها فى اللجة الثائرة ، ولا تبسط شعاعها الاعلى صفحة الماء الرقراق .

إننى اسمع صلصلة الناقوس الذى يهتف بى الى الهيكل : فأغدو اليه حاملا ايمانى . . . .

ألا افتح قلبى لادراك الحقيقة ، حتى أستطيع ان اعانقها ، فأغدو سعيدا .)

فى هذه المقطوعة الصغيرة يظهر لنا شك الشاعر ، ومرارة قلبه ، وتوقان روحه الى الحقيقة ، والطريق التى انتقاها ليستعيد الهدوء والايمان . ولكن الله لم يجاور قلب شيللر كثيراً . لأن الشك تسرب اليه ظافراً ، وملك عليه نفسه ولما يتجاوز الثمانية عشر ربيعاً ، فعاد شاعر هذه المقطوعة الطافحة بالايمان شاعراً شاكا ماعلمنا سر انقلابه ! ولكن هل كانت المذاهب الفلسفية الا تاريخ قلب الانسان ؟ وهل كان الشك والجحود والسلب الاثورة من ثورات النفس المتعطشة الى معرفة المجهول . واذا بشيللر يقول - متحديا الدين بلهجة من يؤله الطبيعة « ان الاله الواحد انما هو كل الكائنات . الطبيعة والاله هما قوتان متساويتان . الطبيعة هى اله يتعدد ويتقسم الى مالانهاية ، وفى الاجتماع ، يؤمن بمذهب (روسو) القائل : ان الانسان يولد صالحاً ولكن المجتمع هو الذى يفسده (١) .

— ٢ —

لندرس الشاعر ، نفسه وقلبه وعواطفه فى رسائله وفى قصائده ، لأنها هى صورة نفسه - اذا توخينا صورتها الصادقة .

ان شقاء شيللر لم يكن شقاء شعريا خياليا فحسب ، بل كان شقاء مصدره نفسه التى غشيها منه ماغشيها ! فهو فى بعض احيانه يتنازعه عاملان : ثورة حواسه ، وتعنيف ضميره له تعنيفاً أراد أن يحطمه الشاعر فعجز عن تحطيمه ، ويتمثل أنينه هذا فى مقطوعة (القتال)

« لا لا . . . سوف لا أتحمل طويلا هذا القتال . . القتال الطاحن الذى يقوم به الواجب ، فاذا لم تقدرى على كبح أهواء قلبى ايتها الفضيلة ، فلا تطلبى منى التضحية . . . هذا اكليلك ليظل - كل الايام بعيداً عنى . . .

خذيه . . . وذرينى وحدى اتلاشى ! »

وفى بعض أحيانه قد يجد الشاعر فى نفسه جرأة على الفرار ، الذى يتجلى فيه الانتصار . فيأوى الى ملجأ (مانهايم)

« فى حالة هم وغم ، اكتب لكم - يا أصدقائى - باننى لم أعد

---

(١) وهذا المذهب دفعه الى تاليف روايته (العصاة)

أستطيع البقاء هنا ـ فأنا خلال اثنى عشر يوما حست مع نفسى كل مكان داخل نفسى وخارج نفسى ،طالباً الخروج من هذا العالم، فالناس والسماء والارض كلها غدت عندى قبيحة . أنا هنا فاقد نفسى . . . ،

وهناك لحظات نرى وطأة الحاضر والمستقبل والعالم والناس تثقل عليه حتى تحطم قلبه ، فيقول يائسا :

« إنى عانقت الانسانية بحرارة وشوق ملتهب ولكن — وا أسفاه — لم أجد نفسى إلا بين ذراعى كتلة من جليد . »

ان النفوس التى نشأت فى كنف الله ، تجد — عند ما تنعتق منه — ملأ لا يجده غيرها من أصناف الألم ، وضروب التوجع ، لأن هذا الفراغ الذى كان يملؤه الله ينقلب الى ظمأ شديد لا يرويه شىء ولا يطفئه شىء . .

بهذه هى المرحلة الأولى التى قطعها شيللر ومن ورائها مراحل، والآن أصبح يظهر تردده كمذهب فى كتابه « رسائل فلسفية من جول الى روفائيل » فما كان جول إلا الشاعر نفسه ، وما كان روفائيل إلا صديقه الشاعر « كرونر » . فى « جول » تتجلى نفس فتية ينتابها الشك ، وهى لا تستطيع أن تفر من أسفها على إيمان فقدته !

قال : (يالها من أيام سعيدة ! تلك الأيام السماوية . حين كنت أتبع مورد الحياة بعينين مغمضتين ، كنت مستسلماً لعواطفى وكنت سعيداً . علمنى روفائيل أن أفكر . وهأنذا الآن أكاد أذرى دموع الندم على هذا الاستكشاف . أنت سلبتنى الايمان الذى كان يودع الراحة فى قرارة نفسى ، وأوحيت الى أن أزدرى كل ما كنت احترمه . فكم من أفكار كانت عندى مقدسة . فنزعت حكمتك (الخزينة) عنها رواءها . وأذهبت بهاءها .

كلما رأيت الناس وهم يرددون صلاة واحدة بلحن واحد قلت : لله هذه الشريعة التى استمسك بها النـاس ! فبعثت فى قلوبهم الراحة والسكون .

عقلك قد أطفأ هيامى النفسى . أنت قلت لى : لا تؤمن إلا بعقلك . ولا مقدس غير الحقيقة ، ولا حقيقة إلا ما يتقبله عقلك — وهكذا أطعتك وصرفت عنى أبهى افكارى .

والآن عقلى وحده ظل معى ليكون وحده دليلى يحملنى الى الله . الى الحقيقة والأبدية . فتعساً لى اذا وجدت ما يخالف تفكيره . أو عرانى شك فى معرفته ، أو غزاه داء تركه مشلولا .)

فروفائيل يمثل أصحاب المذهب العقلى القائلين بأن لا حكم إلا للعقل كما يذكر جول : « أنت قلت لى : لا تقبل شاهداً غير العقل ، إذ لا مقدس إلا الحقيـــقة . والحقيقى هو الشىء الذى تعرفه بعقلك ، قد أطعتك وضحيت بأمانى وغدوت كالظافر اليائس الذى أحرق كل سفنه وقطن فى الجزيرة الجديدة قاتلا منه كل رجاء بالرجوع . فعقلى هو الآن كل شىء وهو وحده يحملنى الى الله ويفتح لى أبواب الحقيقة والأبدية ! ولكن تعساً لى إذا ضل دليلى الطريق فالعادة لابد أن تغادرنى . وويل لى إذا شاء القدر أن تنقطع أوتار هذه القيثارة ، فتضطرب ألحانها ، وتكثر أشجانى وأشجانها . »

وفى فترة ثانية يكتب جول هذه الرسالة لروفائيل :

(ان مذهبك قد خدع كبريائى ، كنت سجينا وانت جذبتنى من عجلتى لتقودنى الى ضوء النهار . فالنور الذهبى والفضاء الفسيح قد لا مساجفونى . بالامس كان يرضينى من المجد الوضيع ان أكون ابناً صالحاً وصديقاً فاضلا ورجلا نافعاً لبلده ، اما أنت فقد صيرتنى رجلا انسانياً .)

قال لى روفائيل : المملكة الوحيدة فى العالم الروحانى هى مملكة العقل

وفجأة ترى الشاعر يحس حقارة الانسان ازاء عظمة الوجود فيجعله احساسه هذا فى شك من نفسه فيقول .

فى أى مكان حيثما حولت انظارى ياروفائيل يبدو لى الانسان محدود العقل ، وان هوة عظيمة تفصل بين تأملاته وبين الحقيقة . لا تغبطه على النوم الذى يستريح فيه ولا توقظه ! فالعقل هو مشعل فى عجلة ينير لحظة فوق رأس السجين ثم يتركه فى ليل اكثر حلوكة . ان فلسفتنا هى رغبة (اوديب) فى المعرفة رغبة يحوطها الالم . ولا تنتهى من الالحاح والسؤال حتى يجيبها مجيب ، هل تستطيع ان تعلمنى من انت ؟) ولكن الشك اخذ يحز فى قلب جول وجول يصيح ويتألم فتخمد جذوته المشتعلة ، فيقول مؤنباً (روفائيل) بلهجة النادم

(هل تعيد الى حكمتك ماسلبته منى ؟ واذا لم يكن ـ لديك ـ مفتاح تفتح لى به السماء فلماذا طردتنى من الارض ؟ واذا كنت تعلم ان سبل الحقيقة وراء حفائر الشك المخيفة فلماذا القيت صاحبك فى هذه الشعب الملتوية ؟

انت هدمت كوخاً حقيراً لتشيد على بقاياه قصراً منيعا ولكنه قصر فارغ ويالللأسف !

روفائيل !! أطلب منك نفسي ، فأنا لست بسعيد .

قد فقدت شجاعتي ، ويئست من قوتي . ويدك وحدها تستطيع ان تشفي جراحي .)

وروفائيل يجيبه :

(عزيزي جول :

أتريد أن تنصب عليك السعادة من السماء بدون انقطاع ؟ هذا كثير على نصيب الانسان . داء الشك الذي وقعت فيه لن تشفى منه الا بنفسك ، وبرغم ان يقظتك تعسة فانني لاأملك علاجاً أنقذك به من خيالك وأحلامك ؛ انا لم اضع شيئا للنفوس التي هي أمثال نفسك الا انني لقحتها بالاضطراب الذي لامفر منه

ايها الجاحد ! قد لعنت العقل ونسيت النعم التي حباك بها .)

وهاهوذا روفائيل يحاول ان يقود صديقه الى الحقيقة فيكتب له:

(ماالشك - ياصديق - الاحدة العقل الانساني في ثورته . على ان الهزة الشاذة التي تصيب النفس النامية يجب الا تؤول بها الى تايد صحتها ، وتثبيت وجهتها ، وكلما كان الخطأ بعيداً كان الظفر بالحقيقة اكثر خطراً . وكلما كثرت عوامل الشك في الانسان كان اكثر لحاجة في تحري اليقين)

وكتاب روفائيل الاخير يقرب بتأثير مدرسة (كانت) الفيلسوف. وفي تلك الاثناء كان شيللر يقف على أجدر ما كتبه (كونسبرغ) بالمطالعة من تصانيف فلسفية . فقرأ فيها بأن افكارنا و آراءنا التي نراها ، قد يمكن الايكون لهاخارج عقلنا حقيقة مدركة . ومثل هذا المذهب يوافق كل الموافقة مذهب شكه ، بل يذهب شيللر الى أبعد من ذلك ، فبينما كان (كانت) يحرص على شيء من الحكمة في (العقل المكتسب) اذا بشيللر يسلخ عن (الكانتيسم) هذه النتيجة التي تجعل الواجب شيئا مجرداً والفضيلة حلما .

والآن فلنتل بعض مقطوعاته نرفيها هذا الشك بارزاً بألوان مختلفة يفيض على جنباتها ، ونرى الجمال الفني أسمى صفاتها . أما المثل الأعلى فأنت مجهد نفسك باطلا لتقف عليه . لأنه هو حلم . يقول :

(لقد خمدت تلك الشمس التي كانت تضيء أيام فتوتي.. وذهبت رسوم ذلك العالم الكامل الذي كان يهجس به ضميري . وضاع ايماني الجميل بتلك الاشياء التي كانت تخلقها لي أحلامي الوادعة الالهية .)

كان الشاعر يسأل . ماهو الوجود ؟ وأين يذهب ؟ وماذا يحول ؟ والانسان نفسه ما هو ؟

هو في بعض أحيانه :

(كحاج في ربيع أيامه ، وقف في الطريق يستخفه الطرب فسمع صوتا يهتف به : سر وثابر على سيرك حتى تبلغ الأفق ، حيث يغدو ما هو أرضي ترابي سماوياً لا نهائيا .

هذه كانت أنشودة الفجر :

ولكن - واأسفاه - قدم المساء وحالت الجبال والأنهار دون سيره ، فترامى على البحر لكي يبلغ غايته ! ولكن الغاية كانت تفر دائما دون أن يدركها .

وقف الحاج في النهاية قائلا : «وا أسفاه ! لا طريق تقودني الى الغاية ، والسماء لن تلتقي مع الأرض . والمكان الذي أنا فيه ليس هو بالمكان الذي يجب أن أكون فيه .)

وهو في بعض أحيانه الأخرى (كالهارب) الذي يسأل عن نفسه .

(أين يجب على أن أمشي حتى أجد الهدوء ؟ أنا متكيء على عصاي ! والأرض الضاحكة بربيع شبابها ماهي - لي - إلا كالضريح .

فاصعد يالون الصباح ! ولون بالشفق والقبل الملتهبة هذه الاحراج والغابات . وانزل أيها المساء ، وسكن بهمسك الجميل هذا العالم الذي سكنت منه الحياة

أنت أيها الفجر لا تنير الاحقلا للأموات ، وأنت أيها المساء لا تهز بهمسك الجميل الا نعاسا طويلا .)

ولكن أية أحلام يريدها الشاعر في قصيدته (آلهة اليونان) ففي هذه المقطوعة يظهر الهدف الذي سعى اليه ، ووضعه نصب عينيه . فهو يتغنى بالشك ويتباهى به ، لأنه يقدس من اليونان الاقدمين مايريد ان ينشره من عبادتهم الوثنية فهو يعظم خلقهم البسيط ، ويكرم أساطيرهم الحساسة . بل هو يأسف على ذهاب العصر الذي كانت تحكم فيه مجموعة آلهة لطيفة تسيطر على العالم . وتقود الناس وراءها الى آلهات اللذائذ والمسرات ويختم هذه القصيدة بقوله :

(سرعان ماتبدل كل شيء ! في كل الخليقة يجرى سلطان الحياة المطلق

(البقية على صفحة ٢٣٨)

العلوم

البحوث الروحية

للاستاذ عبد المغنى على حسين

خريج جامعة برمنجهام

سبقت لنا كلمة بهذا العنوان فى الرسالة . وفيها أشرنا إلى أن أفراداً من أساطين رجال العلم الحديث جمعوا من اختباراتهم وتجاربهم باستخدام الوسطاء أدلة جديرة فى اعتبارهم باسم العلم تبرر القول بأن العالم الروحى جزء من النظام الكونى ، وأن الاتصال به فى حيز الممكنات .

ونود بعد ذلك أن نورد طرفا من تلك الاختبارات والتجارب ، ونزنها بالميزان العلمى ، لنرى مبلغ صلاحيتها كدعامة لهذا الزعم الخطير ، الذى إذا صح فان كل كشف علمى سابق يعتبر بجانبه من محاقر الامور . لم لا ؛ والعلم لم يمهد لنا إلى اليوم غير سبيل المادة ؛ والمادة لا نمكث فى محيطها الا قليلا ، ونرتحل عنها وشيكا . أما عن الخلود بعد الممات فلم نسمع من العلم الحديث كلمة ؛ اللهم الا كلمة انكار من بعض الذين ينتسبون اليه .

نعم ، نسمع انكاراً صريحا من بعض رجال العلم ؛ وافتراض وجود الارواح غير المنظورة أبغض شىء الى رجل العلم الحديث وليس هذا بغريب ، فالبرق الذى اعتبره الأقدمون لمع سيوف الآلهة فى السماء قد ثبت اليوم أنه شرر كهربائى . والرعد الذى حسبوه زمجرة غضب الآلهة ليس سوى فرقعة ذلك الشرر . وقوس قزح الذى ظنوه سلما تمده الآلهة ليهبط على درجه رسولهم ليس سوى طيف ضوئى ناتج من تحلل أشعة الشمس بانعكاسها وانكسارها فى قطرات ماء المطر . والمرض الذى توهموه فعل أرواح شريرة وطاردوها عبثا بالتمائم والتعاويذ ليس سوى فعل ذر دقيق يرى بالمجهر ويعالج علاجا صحيحاً بالمحقن . لاحد لما كان ينسبه الاقدمون الى الارواح . ولا شك أن تاريخ العلم الحديث يكاد يكون سلسلة حرب مع الارواح ؛ فهو يجليها كل يوم عن مركز فى العالم المادى ، ويقيم على أعقابها نظما وقوانين يتبع بعضها بعضا ولا أثر فيها لروح ما .

لا بدع إذن أن نرى رجل العلم يرفض الاستماع لكل زعم بوجود أرواح للموتى مهما كان مصدره . ويعتبر ذلك رجوع القهقرى ، وعوداً الى عهد الخرافات البغيض ، واستسلاماً لحب البقاء ، وطمعا فى لقيا الاعزاء ، وذعراً من الفناء . ولا بدع أن نراه يعتبر تعليل الظواهر بالارواح عجزاً عن التعليل ؛ ويفضل عليه أن تبقى الظواهر بلا تعليل .

هذا الموقف السلبى تراه كثرة المفكرين هو الجدير بالروح العلمية الصحيحة ، التى لا تعرف الآمال ولا المخاوف . ولكن بعض المفكرين يرونه تطرفا وتعنتا . لأن الروح العلمية التى لا تعرف الآمال والمخاوف ، لا تعرف أيضا البغض والحب . يجب أن نستمع لكل رأى مهما كان بغيضا . وأن لا نرفض الاشتراك فى تجارب تجرى على النمط العلمى مهما بدا موضوعها سخيفا والامل فى جدواها ضعيفا . اذا لم نفعل ذلك فنحن كالذين رفضوا النظر فى تلسكوب غليليو .

« سر الفر جوزيف لدج » أستاذ انجليزى فى علم الطبيعة ، وشخصية علمية عالمية فذة . نيف اليوم على الثمانين من عمره ولا يزال نشيطا عاكفا على البحث العلمى فى معامله . كان أستاذا بجامعة ليفربول ، ثم قضى حقبة طويلة مديراً لجامعة برمنجهام . وكان رئيسا للمجمع العلمى البريطانى ، ولجمعية رنتجن ، ولجمعية الطبيعة . ولجمعية الراديو . ولديه من ألقاب الشرف العلمية الشىء الكثير . وله فضل معروف فى تحقيق التخاطب اللاسلكى ويعتبر دائما حجة فى كل ماله علاقة بالأثير

لم تقتصر جهود هذا العالم الكبير على الطبيعة ؛ بل امتدت الى ما فوق الطبيعة . والذى دفعه الى هذه المخاطرة العلمية أمران : أحدهما بحوثه فى الأثير ، التى أوصلته الى أن الأثير هو الحقيقة الأساسية فى العالم المادى ، وانه الوسط الشامل ، وان منه تصاغ

المادة نفسها . ثم نظر فرأى الأثير الجزء الأهم فى كياننا الجثمانى نفسه . أليس الجسم البشرى ككل جسم مادى يتألف من كهارب دقيقة بينها فراغ شاسع بالنسبة لحجومها المتناهية فى الصغر ؟ أليس الجزء الأكبر من الجسم البشرى فراغا يملؤه الأثير ؟ هذا الاثير إذن هو الثوب الحقيقى لعنصر الحياة الذى يميزنا من الجماد والذى نسميه الروح . أما الذرات المادية فهى مجرد آلة تمكننا من العيش برهة فى عالم المادة. ان الدقائق المادية نفسها لاتتلامس قط بل يوجد بينها دائما فراغ يملؤه الأثير . فنحن إذن لانمس شيئا إلاعن طريق الأثير . ولانسمع شيئا إلا بتوسط الأثير . ولانرى شيئا إلا باستخدام الأثير . والتفكير وكل الظواهر العقلية والنفسية لاشأن لها البتة بالذرات المادية . بل تنشأ أولا فى الأثير المتخلل لأجسامنا. وهذا الأثير بكيفية مجهولة يحرك ذرات المادة التى تتألف منها أعضاؤنا الظاهرة . فننسب نحن كل شىء لذرات المادة وننسى الأثير الرابط لها والضابط لكل ماتأتيه من حركات .

هل يتحتم إذن ان يكون موت الفرد زوال كل أثر لذاتيته من الوجود ؟ إذا كانت الحياة من خواص الأثير الجثمانى فهناك كل أمل فى بقائها بعد الممات . إذ قد علمتنا دروس الطبيعة أن الظواهر الأثيرية تبقى ما بقى الدهر ، ولاتتشتت أيدى سبا ، شأن ذرات الجسم المادى . الموت إذن هو طرح ذرات المادة والعيش بعد ذلك فى ثوب الأثير الجثمانى ، وفى عالم أثيرى لايحجبه عن حواسنا الحاضرة الاعجز تلك الحواس وقصورها . لقد كشف العلم عن ظواهر اثيرية لم تكن من قبل محسوسة ، مثل الأشعة الخارجة عن حدود الطيف المنظور ، فلم نستنكر أن يكشف العلم عن حياة فى الاثير ؟

هذا مايقوله (لدج) . وظاهر أنه رأى فلسفى أكثر منه عمل علمى . وإذا كانت هذه هى كل حجته فقد أتى بغير جديد . إذ النقاش الفلسفى فى المادة والروح والفناء والخلود فاضت به الكتب وكاد يصبح مفروغا منه . لذا لانرى التبسط فى حجته هذه رغم ما تستحقه من تقدير . وننتقل الى اتصاله الفعلى بتلك الكائنات الأثيرية وكيف أمكن أن يكون .

وضع « لدج » كتابا أسماه « كيف ثبت لى خلود النفس البشرية » مهد له بما يأتى :—

« القول بخلود النفس البشرية بعد الممات ، وبأن الموت طرح للجسد المادى ليس غير ، هو قول قديم ، وجد منذ وجد البشر . أما الحجج التى تؤيد هذا القول فبعضها دينى قائم على التسليم بوجود خالق رحيم عاقل ، وبعضها حيوانى يرجع الى نفور النفس الغريزى من فكرة الانعدام ، والقول بأن الغرائز البشرية تنم حتما عن حقائق واقعة . انى فى هذا الكتاب لا أعتمد على أحد هذين النوعين من الحجج ، وإن كنت أحترمهما وأقدرهما قدرهما . بل لست أنوى أن احاج أو أجادل ، فنظريتى قائمة على أساس من الاختبار الفعلى ، وعلى قبول طائفة من ظواهر يمكن لكل إنسان أن يشاهدها بنفسه اذا تجشم عناء التجريب . إنى أعرف خطورة كلمة « حقيقية » من الوجهة العلمية ، ومع ذلك أقول دون أدنى تردد أن بقاء ذاتية الفرد بعد موته هو عندى حقيقة قام عليها الدليل الحسى . لقد وصلت الى هذا اليقين بدراسة خصائص نفسية غامضة لم يلتفت اليها العلم حتى الآن ، ولا يرتاح لها فيما أظن رجال الدين . لذا أرى لزاما على أن أذيع من آن لآن مايبرر مثابرتى على هذه البحوث ويعبر عن اقتناعى التام بصحة ماوصلت اليه .

« ولاحاجة بى الى القول بأن كلمة (خلود) الواردة فى العنوان لايقصد بها الخلود أبد الآبدين فهذا ما لا علم لى به . كل ما أطمع فى تقريره هو بقاء ذاتية الفرد بعد الموت . الموت هو الحادث الذى نرى عنده انقطاع حبل الحياة فاذا كنا نعيش بعد هذا الحادث القاصم فبعيد أن نلتقى بعده بحادث أشد منه وأعظم خطرا . لست أعرف ما يكون من شأننا فى المستقبل القاصى ، وكل ما استدللت عليه هو بقاء ذاتيـــة الفرد منا بعد مغادرة هذا الجسد المادى . والمستقبل البعيد خليق بأن لا يشغل بالنا الآن . وحسبنا العلم بأن هذه الحياة الأرضية ليست كل نصيبنا من الوجود كأفراد ، وانا إذا استخدمناها كما ينبغى فهى المرحلة الأولى من عيش طويل كله فرص للخدمة التى تتفق مع طبيعتنا الحقيقية وفيها سعادتنا الصحيحة » .

هذا ما كتبه « لدج » تمهيدا للكتاب . وسنتناول ما تضمنه الكتاب من تجارب ومشاهدات فى كلمة أخرى ان شاء الله ؟

عبد المغني على حسين
خريج جامعة برمنجهام

فى النســـبية

بين اســـتاذ وتلميـــذه

التلميذ — كأنك تريد أن تقول إن الأطوال تنكمش بالحركة

الأستاذ — يظهر أنك لم تفهم ما أعنيه بالضبط . سأضرب لك مثلا . تصور طائرة الآنسة لطفية مبتعدة عنا بسرعة مائتى كيلو متر فى الساعة . وانك ترصد — وأنت على الأرض — قائمة علم مثبتة عمودية على هيكل الطيارة فى اتجاه حركتها تريد قياس تلك القائمة . ثم لنفرض أنك — باستعمال ما تعلمته فى مدرستك من أصول حسابات المثلثات وما تحت يدك من دقيق آلات القياس قادر على إيجاد طول تلك القائمة المثبتة فى الطيارة مضبوطا الى أجزء من ألف مليون من المليمتر . فان العلم الحديث يؤكد لك انك ستجد انكماشا فى طول القائمة المذكورة . . .

التلميذ — أى إننى أجد طولها أقل منه عندما كانت ساكنة امامى على سطح الأرض

الأستاذ — نعم . ولكن ليس هذا كل ما هناك . فان الآنسة لو رأت القيام بتجربة مماثلة وهى فى طائرتها . وكان معها أجهزة دقيقة مثل التى عندك . ثم حاولت قياس ارتفاع قامتك وأنت على ظهر الأرض . لرأتك أقصر قليلا مما كنت وهى أمامك قبل أن تبدأ الطيران

التلميذ — أقصر ! لا شك أنك تريد أن تقول أطول

الأستاذ — لا . بل أريد أن أقول انها تراك أقصر . فهنا موضع الدقة فى النظرية الجديدة . ذلك لأن الحركة والسكون نسبيان . وإذا كنت تعتبر الآنسة وطائرتها مبتعدتين عنك بتلك السرعة بينما ترى نفسك ساكنا . كذلك هى . فانت والأرض التى تحملك — بالنسبة للطائرة — فى حركة ابتعاد عنها بسرعة مائتى كيلو متر فى الساعة . أما هى فتعتبر نفسها ساكنة

التلميذ — ولكن أرى الآنسة محقة فى اعتبار طائرتها فى حالة سكون وكل ما عداها مبتعد عنها بتلك السرعة الكبيرة

الأستاذ — هذه وجهة نظرها . صحيح أن وجهة نظرك أنت على الضد من ذلك . ولكن هذا لا يمنع أن تكون أنت أيضا على حق من وجهة نظرك . أى أن كليكما على حق فى اعتبار نفسه ساكنا والآخر متحركا . ولا شك انك تذكر قطار السكة الحديدية عندما سار بك لأول مرة . وكيف أنه كان يخيل لك كأن الأرض تبتعد عنك . وان القطار لا يتحرك . وهذا ما يحدث أيضا للمسافر بالطيارة . فالأستاذ البشرى عندما ركب الطيارة لأول مرة ووصف شعوره فى مقال له بالاهرام . ابان كيف أنه خال الطائرة لا تتحرك أكثر من كيلومترين كل ساعة بينما هى تقطع مائة . ولعله لو أغمض عينيه وتجاوز عن بعض العوامل الآلية التى تحيط به فى الطائرة كأزيز محركها مثلا . لما شعر بحركة ما .

وما دمنا قد قررنا هذا المبدأ — نسبية الحركة والسكون — فيمكننا أن نعيد نظرة على مسألة انكماش الاطوال المتحركة . أيمكنك أن تخبرنى الآن أيهما ينكمش فى الطول . قائمة العلم فى طائرة الآنسة المبتعدة : أم قامتك أنت وأنت واقف على ظهر الارض ؟

التلميذ — يخيل لى مما سمعته الآن ان كلهما ينكمش طولا . فقائمة العلم بالنسبة لى تتضاءل وتصغر ، وكذلك قامتى اذا حاولت الآنسة رصدها

الاستاذ — تعبيرك الآن مضبوط . وازيد عليه بأن كلا الاثنين أيضا ثابت الطول . فقائمة العلم طولها لم يتغير فى نظر الآنسة . وكذلك قامتك فى اعتبارك أنت ثابتة . اذ مادامت الحركة نسبية فالانكماش نسبى أيضا .

التلميذ — فهمت ان مثل هذا الانكماش النسبى — لو وجد — ضئيل جدا . وأظن ان كشفه بالآلات مستحيل ، فما الذى دعا اينشتين لفرض وجوده

الاستاذ — ليس هو اينشتين اول من قال بوجود مثل هذا الانكماش . فمنذ أكثر من مائة عام وعلماء الطبيعة يجرون تجارب على الضوء والاثير ؛ فيجدون نتائج مخالفة لما يتوقعون ، وقد وجدوا أنفسهم مضطرين ازاء تلك النتائج غير المنتظرة الى البحث عن تعليل لها ؛ وكان أوفق الفروض التى اهتدوا لها فكرة انكماش الاطوال المتحركة . وبواسطة هذا الفرض أمكن اصلاح مافسد من النتائج . ثم قامت المحاولات لتعليل انكماش الاطوال بالحركة ، ووضعت النظريات العلمية على أسس معقدة ، حتى جاء اينشتين فعرض تفسيرا بسيطا سهلا لهذا الانكماش معتبرا إياه كقوس قزح ؛ انت تراه موجودا وغيرك لا يراه بتاتا

وليست الاطوال هى المقاسات النسبية فقط ؛ فهناك الكتلة والزمن، فهذان أيضا نسبيان . الكيلو جرام من المادة فى نظرك هو أكثر من كيلو جرام فى نظر الآنسة الطائرة . والساعة من من الوقت عندك . . .

التلميذ — مهلا . مهلا . فان ماقلته الآن يتنافى تماما مع ماعلمناه فى المدرسة عن الكتلة . أليست هى مقدار ماتجمع فى الجسم من المادة ،فكيف تقول إذن انها تتغير . ومن أين تجيئها تلك الزيادة وهذا التغيير ؟

الاستاذ — ومن أين يجيء التغيير للاطوال ؟ وفوق ذلك فالتعريف الذى أعدته أمامى للكتلة قابل للانتقاد . والتعريف الذى يمكننا أن نقبله لها هو التعريف الذى يبين طريقة الوصول لتقديرها . ومادامت الكتلة لاتصل لتقديرها الا عن طريق تغيرفى (كمية تحرك) أو (عجلة) سببتها قوة . فالسرعة والاطوال لها دخل دائما فى تقديرها . والاطوال والسرعة كما علمت نسبيان . فلماذا لاتكون الكتلة نسبية أيضا ؟

وأريد أنأزيدالآنعلى ماقلته عن الكتلة كلامايشبهه عن الزمن فالدقيقة من الزمن ليست كذلك فى كل زمان ومكان

التلميذ — هذه هى كل النظرية النسبية اذن ؟ ولكن لم تقل لى الى أى مدى تحققت تلك النظرية بالتجربة والمشاهدة

الاستاذ — ارجو أن تعلم أن النسبية تطلق الآنعلى نظريتين : النظرية الخاصة والنظرية العامة . والاولى قال بها اينشتين سنة ١٩٠٥ اما الثانية فلم يكملها الا سنة ١٩١٧ . وكل ماسمعته الآن من النتائج مأخوذ من النظرية الخاصة . التى تبحث فيما يحدث للاقيسة اثناء الحركة المنتظمة فى خط مستقيم . وهى تبدأ من فرض أبانت التجارب العلمية صحته . وهو فرض ثبات سرعة الضوء . فالمسافة التى يقطعها الضوء فى الثانية هى عدد محدودمن الكيلومترات لايزيد ولا ينقص باختلاف الامكنة والازمنة . وقد استغل اينشتين هذا الفرض . واستنتج رياضيا بواسطته وبواسطة مبدأ النسبية الخاص . مقدار التغير فى الاقيسة نتيجة الحركة النسبية

والنظرية العامة لا تقتصر فى بحثها على الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ، بل تتناول الحركة الدورانية ومجالات القوى . وهذه النظرية طبعا أعم من الاولى وأشد تعقيدا: ورياضيتها قلما تظفر بمن يتقن فهمها ، ولذا فهى سيئة الحظ مع جمهور الكتاب بعكس شقيقتها

تسألنى الى أى مدى عززت المشاهدات والتجارب النظرية النسبية وسأجيبك مقتصراً على النظرية الخاصة

١ — فانت تعلم أن فرض انكماش الاطوال نتيجة الحركة احتاج العلماء له لتفسير نتائج غير متوقعة فى تجاربهم . ومادام هذا الفرض مقرراً بوضوح ومبينا على أسباب معقولة فى النظرية النسبية فالنظرية لم تأت اذن الا بما دعمته التجارب وقررته

٢ — وانت تذكر من غير شك الالكترونات السالبة التكهرب المنبعثة من المواد المشعة (كالراديوم مثلا) . هذه الالكترونات تتحرك بسرعة كبيرة تقرب من سرعة الضوء . وقد وجد انها تختلف فى السرعة باختلاف مصدرها احيانا . ووجدايضا ان كتلتها تختلف باختلاف سرعة تحركها

والنظرية النسبية كما رأيت تقول بذلك . فالكتلة مثل الطول شيء نسبي تختلف باختلاف السرعة . والنظرية تعطينا مدى تغير الكتلة بتغير السرعة . وهو مايتفق مع المشاهد الملحوظ

٣ — كان هناك رأى قائل بأن النجوم المتحركة للامام ، ضغط الاشعاع على سطحها الامامى اكثر منه على سطحها الخلفى . وهذا ممايعمل على تقليل سرعتها بالتدريج حتى تصل لحالة السكون فى وقت ما . وقد استنتج الفلكيون من ذلك ان النجوم القديمة لابد ان تكون أسرع حركة من النجوم الحديثة . ولكن من الاسف لم تعزز المشاهدة هذا الاستنتاج الواضح

ولقد جاءت النظرية النسبية فى الوقت المناسب لتسعف العلماء وتنقذهم من هذا التناقض فأبانت لهم أن السرعة ليست إلا شيئا نسبيا . فلا يوجد مايسمى بحالة السكون المطلق . والنجم المتحرك بالنسبة لنا ساكن بالنسبة لنفسه . فلا داعى لأن نبنى على حركته المزعومة ما بنينا من النتائج

لعلك تعفينى الآن من ذكر نتائج أخرى هامة للنظرية . فانى أخاف أن تعجز عن متابعتى فيها بمثل ما فعلت من الصبرحتى الآن ولعلنا نناقشها فى فرصةأخرى .

طنطا — محمد محمد السيد

القصص

الى خراسان

للاستاذ الرحالة محمد ثابت

رحلة قام بها الاستاذ عام ١٩٣٣ الى تركية والعراق وايران وافغانستان

اعتزمت القيام من « طهران » الى أرض « خراسان » حيث مقر الامام الرضى أحد أئمة الشيعة ، وضريحه فى « مشهد » ثانية مدن فارس ، وأولى البلاد المقدسة . تبعد عن طهران مسافة نائية هى فوق مائة وستين فرسخا . والفرسخ - وهو وحدة القياس عندهم - نحو ستة كيلو مترات ، فالمسافة كلها نحو الف كيلومتر أو تزيد . كان القوم يقطعونها على متون الابل والبغال والحمير قبيل الحرب الكبرى ، فيما بين اربعين يوما وستين ، وهى اليوم بالسيارات بين يومين وثلاثة . اخذت مكانا أماميا فى سيارة كبيرة من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة والعشرين بين رجال ونساء ، وشيوخ وشبان ، وبدأنا السير ليلا ، وكلهم ايمان صادق لايبتغون من وراء متاعبهم تلك ونصبهم هذا الا زيارة قبر الامام الرضى ومعهم زادهم ، أما انا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام ، آونة وأخرى كان يصيح القوم قائلين : (لاهم سل آلى مهمد آ ل مهماد) واخذنا نمر بالمحاط التى يسميها القوم مسافرخانات أو « كرفان سراى » وهناك نجد امكنة تحكى الفنادق بها حجرات فقيرة الاثاث ، وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطنا من الراحة ، ثم نستأنف السير ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم ، فقد كان الفريق الاكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين الافيون فيتنحون جانبا من المكان ويمر الغليون عليهم جميعا ، وكان فى جوارى الى جانب السائق احد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة ، ولحيته المرسلة ، وسحنته الناحلة ، وكان يتيه على الاخرين بعلمه وبانه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء ، ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه هناك (حق الخمس) ، يقصدون الاغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لانهم من السادة سلالة الرسول

جد السائق فى السير على ضوء القمر وقبس مصباحه ، فخانه نظره فما نشعر إلا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق ، وتنزل هوة من دونها واد سحيق ، فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا ، وصاح الجميع ، وارتطم هذا بذاك ، وذاك بجانب من السيارة ، ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا ، وإذا هى صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب ، وقد أصيب من الركاب كثير ، ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا وصدمة شديدة فى الركبة اليمنى أحدثت بها كسراً لاأزال أعانيه ، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائها حتى الصباح فرأيت العجلة قد كسرت من أساسها ، ولولا لطف الله لكنا اليوم فى عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا يوما كاملا فى تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولا قوت ، فتبلغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر ، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته ، واستأنفنا سيرنا شاكرين الله ان أنجانا من خطر الموت فى تلك الناحية النائية وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير فى تلك الطرق الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضى الامام عنا . وما كدنا نسير بعيداً حتى وقفت السيارة فجأة وتبين أن البنزين قد نفد ، ولم يكن لدينا منه شى ، فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين . والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهابا ورجعة فى كثرة هائلة ، تحمل جماهير الحجاج ، ويقولون بان هذا الخط على وعورته اكثر الخطوط حركة فى نقل المسافرين لأن « مشهد » خير لديهم من مكة المكرمة تغنيهم عن حج بيت الله الحرام فى زعمهم فترى الفانى منهم والفقير المدقع

يدخر أجر السفر ليصل إليها ويود لو يموت بها ليدفن فى أرضها الطاهرة

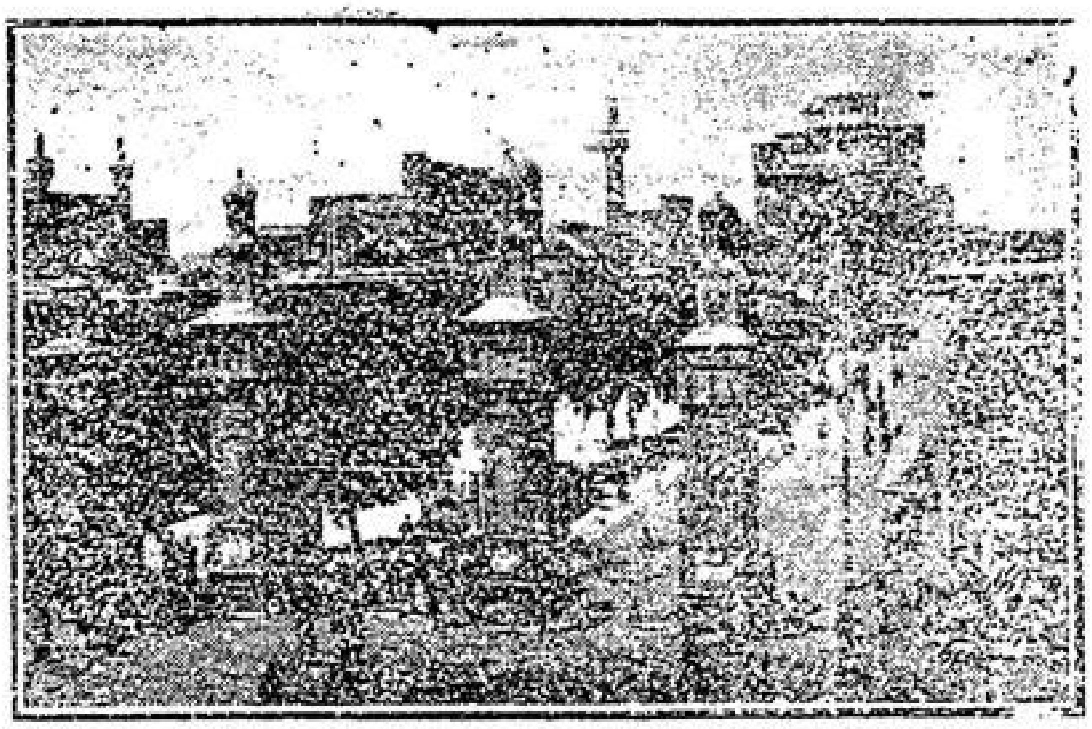
لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا منها ماهو بالغ الوعورة فى طرق لياتها متعاقبة ، وكلها مجدبة عريت عن النبت الا فى بعض بطون من الأودية ،حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من اللبن والطين ، وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوى وتلك بداءة ارض خراسان

استوقفت السيارة قليلا فى قرية «نيسابور» مثوى رفات (عمر الخيام) الذى عاش فى الربع الاخير من القرن الحادى عشر وأوصى ان يدفن فى بقعة تظلها الاشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت مقبرته وسط الحقول ،تظلها حقا أدواح عالية قديمة ، ويزورها من الاجانب خلق كثير لانه قد خلد له ذكرا بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس الى جميع اللغات ، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لانه كان إباحيا فى شعره

عادت الربى فتسلقناها وأشرفنا على «مشهد» وهى فى حجر الجبال بعد أن لبثنا فى الطريق ثلاثة ايام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيرا . هنا وقف السائق ونبه القوم أن هاهى مشهد فارقبوها تبركا فأخذوا يحاولون رؤية القبة الشريفة وسط الضباب والدخان المنبث وكل من لمح منها قبسا قرأ آيات التبريك وعمد الى قطع الاحجار يجمعها فى كومة ، ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ماتيسر

دخلنا مشهد تحوطها المزارع والبساتين ثم أخذنا نخترق طرقا فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المبانى الحديثة الوطيئة ، وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس ، لكن يد الاصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت فى طهران ،وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر على البلاد بجانب النفوذ الروسى . حتى حدث مرة ان حاول بعض الناس ان يعلو ببناء بيته الملاصق لتلك الدار فمنعه القنصل إذ لا يجوز كشف حرمة الدار الانجليزية أما اليوم فلا يكاد يكون لذاك النفوذ ظل أبدا .

قصدت زيارة ضريح الامام الرضى ، الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال ،وإذا المسجد والحرم فاخران الى حد كبير . مداخلهما عدة ، الباب تلو أخيه فى زخرف جذاب وفن شرقى بديع بالقيشانى والبلور والمرمر والرخام ، وأمام كل واجهة رئيسية بهو مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والاحذية ومآرب أخرى ،والباب الرئيسى للضريح مكسو كله بالذهب الخالص



منظر عام للحرم الشريف فى مشهد كعبة الشيعة من الفرس

فى فجوات وتعاريج جذابة ، وفوق الضريح قبة مكسوة بالذهب الخالص وللمسجد مئذنتان دقيقتان ، عليهما غشاء من ذهب . أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث فى دهشة فائقة . كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقا بينهم ؛ ومنهم المثقف أنيق الهندام والمتسول البائس فى الخرق البالية والاقذار التى ينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا . هذا إلى العلماء فى عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم ، والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون لحاهم بالحناء جميعا ؛ ومن زوار الاجانب خلق كثير ؛ عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الاسلامى : وعلى الجدران يرتمى الكثيرون فى خمول زائد وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم ، ويتوسط أحد الأفنية سبيل مذهب فى داخله نافورة حولها السلاسل تحمل القعاب للمحتسين ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء . وبين آونة وأخرى يمد مغرفة يحرك بها الماء . والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر :اخيرا دخلت الضريح الفضى وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة وقد اتممت تطوافى حوله فى ثلث ساعة كدت اختنق خلالها من كثرة الزحام وهنا رأيت عجبا : نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الارض ولمس للأعتاب بالخدود وما الى ذلك مما تقشعر له الأبدان . هنا أسرع شيخ يطوف بى وناولنى أدعية مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع وأسجد وأقبل ، فأسرعت بالتخلص

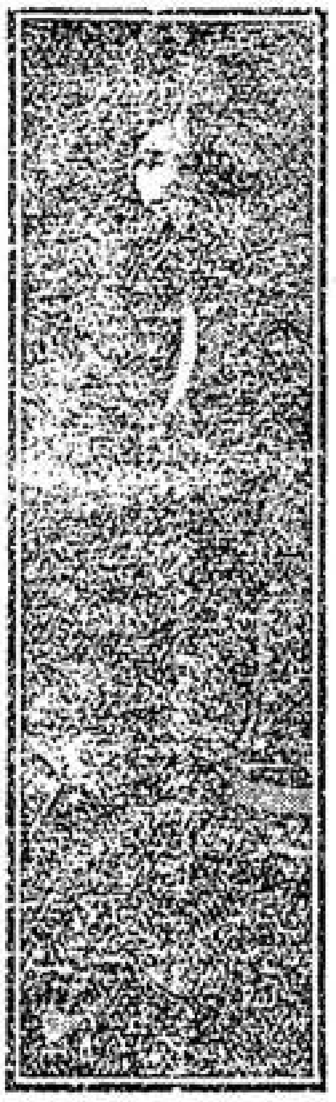
منه بفضل زميل فارسي عرفته ، فخاطب المطوف قائلا بأنني عالم قارىء خبير بكل أولئك ؛ وقد علمت بعد أنني لو رفضت الاذعان للامر وحدي لظن أني ملحد ولكان ما لا تحمد عقباه ، وبجانب الضريح قبر هرون الرشيد غير أنه منبوذ في ناحية غير ظاهرة وقد وضعوه



الفناء الرئيسي للحرم الشريف يتوسطه مجرى الماء بجانبه السبيل المقدس

بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عندما يطوفون حول الرضى وذلك احتقارا لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويركله برجله ووجهه مقابل للامام ويقول (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لأنه سني أولا ، ثم لأنه والد المأمون الذي اتهم بدس السم للامام ؛ وقد سافر الرشيد الى هنالك في حملة ضد احد الحكام الذين مالأوا بني أمية ، فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن في هذا المكان الذي أقام عليه الأسكندر المقدوني علما ؛ وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم ؛ ولما جاء المأمون ولي الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله ؛ ولما عاد الى بغداد وتم له الأمر دس للرجل فمات ودفن الى جوار الرشيد . خرجت الى الفناء ، واذا في كل ركن من أركانه عالم يرتقي منبرا وحوله خلق كثير جلوس على الأرض في وجوم وشبه ذهول وهو يقص عليهم أنباء الامامين علي والحسين وجميعهم يبكون ، وكلما اشار في قوله الى الفاجعة صاحوا ولطموا جباههم وخدودهم في فرقعة مؤلمة ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز والكهل الفاني والمتفقه والأمي الجاهل ، وذلك التبشير

يظل سحابة اليوم في جميع أركان الأفنية . ولما أوشك الغروب سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولا تقرع في نقرات مثلثة ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات في أبواق طويلة مزعجة ، وظل هذا حتى غربت الشمس فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذي يدخل الرهبة ويلقي الرعب في القلوب . فقلت في نفسي أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء لا ابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد ؟ تأخر معيب وتدهور يعطي الأجنبي عن البلاد أسوأ الفكر ؛ وحتى تقضي حكمة الشاه على كل أولئك ، سيظل هذا حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد



مثل من الجمال الفارسي

والذي شجع الفرس على اتخاذ «مشهد» كعبة مقدسة ، الشاه عباس أكبر ملوك الصفويين هناك وكان عصره ثالث العصور الذهبية في فارس . صرف قومه عن زيارة مكة لكراهتهم للعرب ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من مال طائل في بلاد يكرهونها ؛ فاتخذ «مشهد» كعبة وجه الشعب اليها ولكي يزيدها قدسية حج اليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافات تفوق ألف كيلو متر ومائتين فتحول الناس اليها ، ويندر من يزور الحجاز منهم اليوم وهم يحترمون كلمة (مشهدي) عن كلمة (حجي) لأن من زار مشهد لا شك أكثر احتراما وطهارة ممن زار مكة في زعمهم !

حبيشـــه

— ١ —

عذراء فاتنة ، ناطقة الملامح ، تبسم عن ثغر نقى مؤشر . فوهاء ولكن جمالها فى ذلك الفوه . حوراء ، تتراءى نفسها اللطيفة رقصة فى عينيها ، ما تلقى عليها نظرة الا ثبتت فى قلبك بصورتها المرحة ، وبسمتها الوادعة ، مأنقة فى ملبسها من غير تبرج ، متألقة فى خفرها بلا تكلف ،

وكانت فتاتنا فى ريعان شبابها ، بدأ عودها يثمر ، وأخذت حركتها تنتظم ، ونظرتها تستقر ونغمتها تلين . قضت أيام طفولتها ترعى البهم ، وكانت محبوبة من لداتها وصواحبها ، مشهورة المواهب بينهم ، يتهافتون على صحبتها ويجمعون على مودتها ، ويقنعون منها بكلمة طيبة أوبسمة عذبة

وكان لابد للطفولة من نهاية ، وقعدت فى بيتها تاركة رعيتها للصغار من إخوتها وابتدأت حياة جديدة

— ٢ —

أنبأت (عبد الله) أمه برغبتها فى زيارة بيت من حيها ، وكان غلاما يفعه ، فاستبان وجهتها واذا به بيت (حبيشه) رفيقة صباه فوثبت صورتها توا إلى مخيلته ، وبدا وجهها الطلق يناديه وصوتها العذب يناغيه . فدعاها لأن تتريث حتى يمضى معها ، ليكسر عنها كلاب الحى الضارية وأكبرت الأم شهامة فتاها ، وحسبتها عاطفة حقا لأمومتها . فرجل جمته ، وطيب ثيابه ، ومشى يختال كالطاووس ، ويترنح كالعروس ، ومن مثله سيقدم على وجه صبيح طالما انتظر لحظات رؤيته ؟ والآن قد أمكنته الفرصة . نعم سيراها ، وفى بيتها ، وتحت رقبة أهلها ، ويشبع نفسه من حسنها فيروى قفره ، ويبل صداه .

دخل عليها ، وشد على يديها ، ونظر نظرة فيها ، فاذا هى غيرها بالأمس ، جمال يتولد ومحاسن لا تنفد .

تحمل الفتى بسهامها ، وخرج من دارها ، تحدثه أمه فيغمغم ، يهيم فى مهامه فكره ، قد أطرق برأسه وشرق بنفسه ، وبعد حين زفر كالمهجور ، وانتظمت أنفاسه كلمات خافتة خاشعة .

وما أدرى ، بلى إنى لأدرى ... أصوب القطر أحسن أم حبيش ؟
حبيشـــة والذى خلق الهدايا ... وما عن بعدها للصب عيش

سمعته أمه ، وفطنت لدائه ، ولكنها تغافلت عن همه ، ومشيا يلفهما الصمت ، حتى اعترضهما ظبى يعطو الى سلمة فوق رابية ، رآه مقدودا كتمثال ، ولمح فى جيده وعينه ليلاه ، فانطلق لسانه من عقاله ، وجهر بصوته :

يا أمتا ! أخبرينى غير كاذبة ... وما يريد مسول الحق بالكذب ؟
أتلك أحسن أم ظبى برابية ؟ ... لا ، بل حبيشة فى ظنى وفى أرب

وماذا تخبره أمه ؟ صبت عليه ذنوبا من الملامة ، وقرعته على خوره واستخذائه ، وحذرته أن يتمادى فى عمايته ، ثم فكرت فى صرف هواه الى بنت اختها ، التى عمدت تزينها ، وتبدع فى تجميلها علها تقع من قلبه موقعا ، ولكن حب حبيشة كان قد واتى والنفس فارغة فاستحكم ، وان غابت عنه تركت ربعه خاويا ، وقلبه واريا

إذا غيبت عنى حبيشة مرة ... من الدهر لم أملك عزاء ولا صبرا
كأن الحشى حر السعير يحشه ... وقود الغضى والقلب مستعر جمرا

وكان عبد الله ككل الشعراء ، وضع قلبه على طرف لسانه ، أحب فشبب ، ولذلك ذلك ، فلقى أهلها منه كل بلاء ، وعملوا كيدهم لصرفها عنه ، فارادوها على أن تعده موعدا ، وفيه تصارحه بزهادتها فيه ، وكراهتها إياه ، وهم عن جنب منها يسمعون . فلما أقبل انخرط اللؤلؤ متهالكا ، والتفتت حيث أهلها كامنون ، ففطن لنظرتها ، ورجع من حيث أتى ، وقال :

لو قلت ما قالوا لزدت جوى بكم ... على أنه لم يبق ستر ولا صبر
ولم يك حبى عن نوال بذلته ... فيسلينى عنه التجهم والهجر
وما أنس م الاشياء لا أنسى دمعها ... ونظرتها حتى يغيبنى القبر

وظل على حبه ، يقنع باللمحة ، ويتعلل بالخيال حتى وقعت الواقعة

— ٣ —

وجه النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد فتح مكة الى ما حولها من القبائل يدعوهم . الى الله عز وجل فنزل ببنى جذيمة

من عامر ولم ينزلوا على رأيه ، فاسر من استطاع منهم ، وحكم السيف فيهم وكان من أسراه ، عبد الله بن علقمة الكنانى ، صاحب حبيشه ، ولما هموا ليقتلوه استوقفهم لحاجة فى نفسه ، وطلب من آسره أن ينزل معه الى أسفل الوادى ، حتى يودع ظعنه ، ولما كان منهن قاب قوسين ، نادى بأعلى صوته : اسلمى ياحبيش ، عند نفاد العيش » فقالت وأقبلت عليه : وأنت فاسلم على كثرة الأعداء ، وشدة البلاء ، ولبث معها برهة ، تزود منها بقبلة ، تقويه على سفره الناصب ، وشقته البعيدة ، ثم انشدها

إن يقتلونى ياحبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنت التى اخليت لحمى من دمى ... وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى

وبعد أن قضى لبانته ، دفع لصاحبه هامته ، وكان ما كان ؟

احمد احمد التاجى
دبلوم دار العلوم

شيللر

(بقيــة المنشور على صفحة ٢٢٩)

أما النبات القاتم ، والوقار الحزين فقد طردتها من عبادتك الصافية . وكل القلوب يجب أن تخفق سعيدة مغتبطة لأن السعداء كانوا حلفاءك ، ولا شىء اذ ذاك مقدس غير الجمال) اما وقد قطع هذه المرحلة فليدن خطوة أخرى ! أليس هو معتنقا مذهب الشك وناصراً مذهب اللذة فلماذا لا يؤمن بالعدم ويتغنى به ؟ وهذه قصيدة (الخضوع للقدر)

إن انسانا مخلوقا للسعادة يتمثل لنا فى يومه الاخير . كان زاهداً فى كل طيبة من طيبات دنياه ، راجيا من العالم الثانى أن يحتسب له هذه التضحية . سفك الدمع الكثير ولم يتمن الا وعداً الهيا حتى يكمل الى النهاية غلبته على قلبه ، وأخيراً دنت الساعة التى ينال فيها ثوابه . فانتصب الرجل الأمين امام عرش الله ليذكره بالوعد الذى ضحى فى سبيله بكل ملذة .

فكان الجواب :

انى أحب كل ابنائى على السواء . أنت تأملت فكان التأمل ثوابك ، وآمنت فكان الايمان سعادتك ، انت تستطيع ان تستفهم العقلاء . وهم سيقولون لك ، ان الأبدية لن تعيد اليك ما فرطت فى ملذاتك » .)

البقية فى العدد القادم

الكتب

كتاب ابن خلدون

للاستاذ محمد عبد الله عنان

لقد ظهرت للاستاذ عنان مؤلفات شتى فى اللغة العربية تختلف فى موضوعاتها ، وتجول فى انحاء مختلفة من نواحى الأدب ، ولكنها جميعاً تنضوى تحت لواء واحد ، وهو لواء البحث ، وتقصد الى قصد واحد وهو احياء التراث القومى العربى ، وإغناء التأليف فى اللغة العربية .

ولعل الاستاذ من أغنى المؤلفين المصريين انتاجا ، فله كتب فى الأدب وأخرى فى التاريخ ، نذكر منها كتب : قضايا التاريخ والمحاكمات الكبرى ، وكتاب « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » وكتاب « تاريخ الخطط المصرية » وكتاب « تاريخ الاندلس » وها نحن اليوم نتلقى منه كتاب « ابن خلدون » فى ترجمة حياة ذلك المؤلف العربى الكبير وأثره فى الحياة الفكر العالمية .

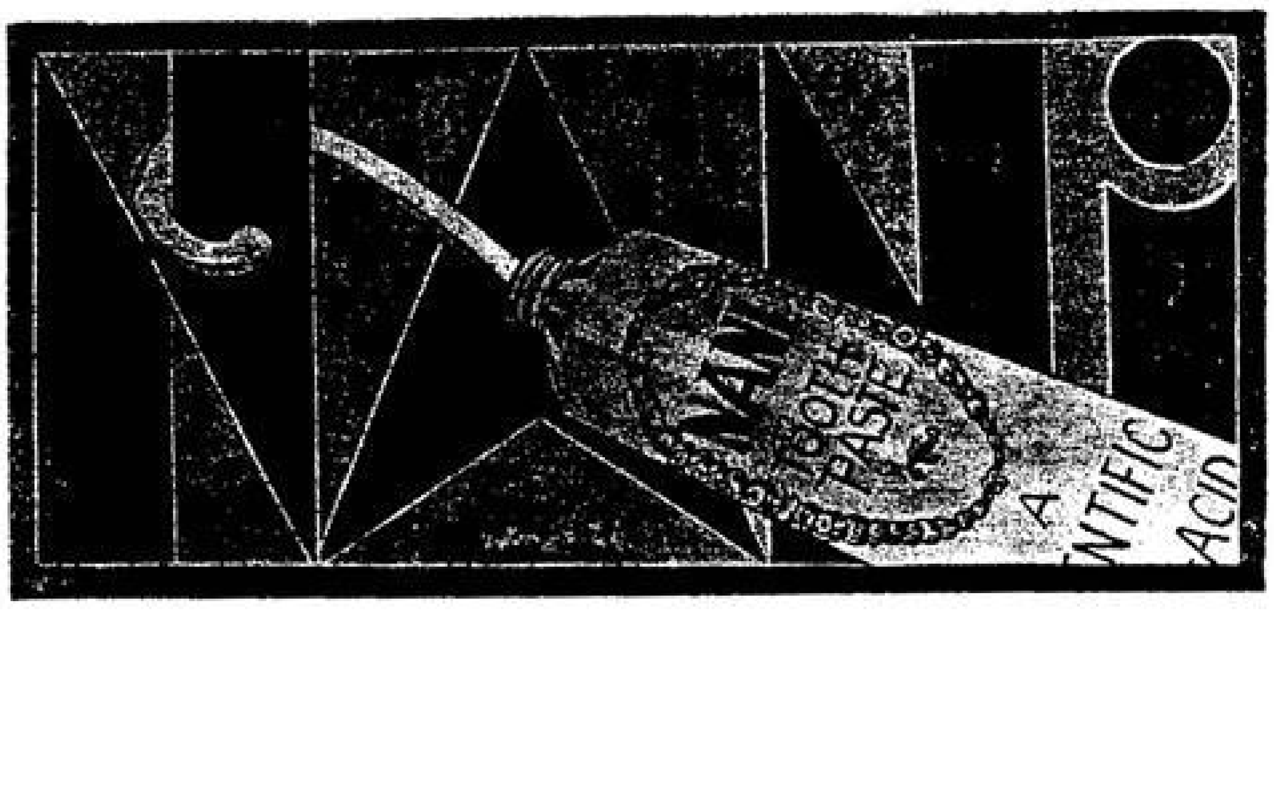
وليس لأحد أن يبحث فى السبب الذى دعا الاستاذ الى تأليف كتابه الجديد ، فليس من العجيب أن يوجد فى اللغة العربية كتاب فى ترجمة حياة ذلك العالم الاسلامى العظيم ، وانما العجب أن تكون اللغة العربية خالية من مباحث شتى فيه وفى تحليل آرائه ودراسة مؤلفاته . فعلى أهل العربية شكر الاستاذ عنان على أن قام بأداء ذلك الغرض وكان أداؤه له أداء كريما .

ولقد بين الاستاذ فى مقدمة كتابه الدافع الذى دفعه إلى تأليف الكتاب فقال « ان هذه الدراسة التى أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ، انما هى وفاء التلميذ لاستاذه ، التمست لكتابتها هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم » .

وقد قسم الاستاذ كتابه الى اقسام : كل منها يتعلق بناحية من نواحى دراسته . فأولها يتعلق بحياة ابن خلدون وتطورها فى مختلف الظروف والتقلبات وفيه ذكر للدول التى كانت له بها علاقة . وقد أفاض فى وصف حياته فى مصر وأثره فى مجتمعها . والقسم الثانى وصف لما خلفه ابن خلدون من المؤلفات ولاسيما مؤلفه الاكبر « المقدمة » ، والقسم الثالث عرض لآراء الغربيين فى ابن خلدون واثره فى مؤلفات آوربا فى العصور الوسطى .

وقد حرص الاستاذ عنان فى القسم الاول من كتابه على ان يصور المؤرخ الاسلامى الكبير تصويرا دقيقا تلمح فيه تفاصيل الملامح ، ودقائق الاوصاف فتحس وانت تقرأ وصفه أنك حيال رجل حى ينبض قلبه بأقوى المشاعر وتتحرك نفسه مع عوامل الحياة المضطربة حوله ، ويفكر فى كل مواقفه تفكيرا متناسقا متوافقا منطقيا مع نفسيته .

وانه لمن الامور المعتادة فى كتابة التراجم ان يقع الكاتب فى خطأ المبالغة اذا كان معجبا بمن يترجم له ، فان الكاتب اذا كان معجبا بالرجل الذى يصف حياته كان من السهل عليه أن يؤول كل أعماله



وكل آرائه تأويل المعجب . ولكن الاستاذ عنان كان فوق هذه المرتبة ، فان اعجابه بعقل ابن خلدون وقوة تفكيره لم يحمله على ان يتغاضى عن وزن مسلكه الخلقى فى حياته ، فكان فى حكمه عليه من هذه الناحية قاضيا غير محاب ، لا يحمله الاعجاب على الاغراق والمبالغة . ومن ثم نراه يصفه بعد النقد والتمحيص وصفا فيه اللوم اذا كان فى مسلكه ما يدعو اليه فيقول مثلا : « فكانت كسابقتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ونكران الصنيعة وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافى الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق فى خططه واعماله عن احتقار عميق للعاطفة والاخلاق المرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى اعجب به مكيافللى فيما بعد الخ » غير ان الاستاذ عنان وان لم يحمله الاعجاب على المبالغة لم ينس ان يعطى ابن خلدون حقه فى التقدير الفكرى فكتب فصلا بديعا فى وصف عزلته ومؤلفاته وآخر فى وصف ولايته للتدريس والقضاء . يمكن ان يعتبرا آية من آيات التأليف الحر والبحث الدقيق . ثم ختم بحثه بفصل بين فيه أثر ابن خلدون فى التفكير المصرى صور فيه صورة واضحة للرجل والعصر حتى ليكاد الانسان يرجع حيا الى ذلك العصر ، ويحس ما كان الناس يحسونه فيه من تنازع فى العواطف بين صديق معجب وحاسد كاره وناقد متجن وهو فى كل ذلك يبين الاسباب التى تحت المظاهر ويرد الامور الى عللها وأسسها . وقد عاد الاستاذ عنان بعد تحليل شخص ابن خلدون الى تحليل آرائه فختم بحثه بالكتاب الثانى وهو فى وصف تراث ابن خلدون الفكرى والاجتماعى ، فبين مجمل آرائه ووجهة نظره فيها ، ثم بحث تطور آرائه الاجتماعية فتتبعها فيما كتب المؤلفون من قبله ، ثم عقب بما كتب من بعده فى الموضوع نفسه . وكانت خاتمة هذه البحوث فصل طريف عن رأى النقد الحديث فى ذلك المؤلف وهو باب قلما يعنى به الكتاب عند كلامهم على مؤلفى الأسلام .

ولعله لم يسبق أحد الى الافاضة فى المقارنة بين آراء ابن خلدون وآراء مكيافللى الايطالى مؤلف كتاب « الامير » المشهور وقد خرج من تلك المقارنة الى رأى طريف فى مقدار الصلة التى بين المؤلف الأوربى والمؤلف العربى الذى سبقه بنحو قرن من الزمان .

فكتاب الاستاذ عنان كتاب شامل على صغر حجمه دقيق على سهولة مأخذه وسلاسة اسلوبه . وانى لاهنىء به الاستاذ وارجو منه المزيد فى هذه البحوث التى ظهر فيها فضله الى هذا المدى .

م . ف